مركز الفكر المعاصر

الممانعة المجتمعية

تأصيل فكري للمفهوم والوسائل

الإصدار (٢٨)

د. محمد بن إبراهيم السعيدي

الممانعة المجتمعية

تأصيل فكري للمفهوم والوسائل

الممانعة المجتمعية

تأصيل فكري للمفهوم والوسائل

د. محمد بن إبراهيم السعيدي

الطبعة الثانية

١٤٣٦ هـ

ح دار الوعي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السعيدي ، محمد إبراهيم
الممانعة المجتمعية: نحو تأصيل فكري للمفهوم والوسائل /
محمد إبراهيم السعيدي- ط٢ - الرياض ، ١٤٣٥هـ
٤٤ ص ؛ .. سم
ردمك : ٠-٥-٩٠٤٦٩-٦٠٣-٩٧٨
١-الدعوة الإسلامية ٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
أ.العنوان
ديوي٢١٣ ١٤٣٥/١٠٢١

جميع الحقوق محفوظة

مركز الفكر المعاصر

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ

markazfekr@hotmail.com
هاتف ٠٩٦٦٥٩١١٠٤٤٩٢
الموقع الإلكتروني www.al-fikr.com

المحتوى

المقدمة ٥

الفصل الأول : تأصيل الممانعة المجتمعية ١١

نشأة القيم ١٣
من أسباب سوء الواقع القيمى ١٨
مفهوم الممانعة الممجتمعية ١٩
نظرة فى تاريخ القيم عند المسلمين ٢١
هل نادى الإسلام بالممانعة المجتمعية؟ ٢٨

الفصل الثاني : مفاهيم وأصول في الممانعة المجتمعية ٤١

المفهوم الأول : الإرجاع للأصل ٤٥
المفهوم الثانى : مبدأ التواصى ٥٠
المفهوم الثالث : سد الذرائع ٥٥
المفهوم الرابع : مواكبة مستجدات العصر ٥٩

الفصل الثالث : وسائل الممانعة المجتمعية ٦٧

أولا: العناية بالعقيدة الصحيحة ٧٩
ثانيا : نبذ فقه المستضعف ٨١
ثالثا : إعلاء شأن العلماء وحصر الإفتاء فيهم ٨٢
رابعا : ربط الشرع بالعقل فى أذهان الناس ٨٦
خامسا : إحياء شعيرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٨٨
سادسا : العناية بالفئات الغنية ٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين .
أما بعد :

اعتنت الأمم المتحضرة كثيراً بكتابة تاريخ الدول والحروب ، وإلى حدٍ لا بأس به بتاريخ الأفكار والعقائد ، لكنها لم تُول التأريخ للأخلاق والطبائع ما يستحقه من العناية ، ومع ذلك فإن الباحث لا يعدم وسيلة للتعرف على معالم الأخلاق في كل عصر من العصور من خلال ما يكتبه المؤرخون أو الأدباء. ومع ذلك تبقى الصورة لديه غير مكتملة ؛لأنه تأريخ مستنبط وليس تأريخا مقصوداً لذاته ، ولا يخفى على من له إلمام بهذه العلوم أن التأريخ المستنبط يقدم نتائج خطيرة جداً ؛ لأن الوقائع ليست هي العامل الأساس في كتابته لكنه مستوى إدراك الكاتب وما يعتوره من ميول خاصة به وإحاطة علمية تتفاوت من شخص إلى آخر.

(١)

نعم : إن الوقائع قد تختلف أو تختفي بعض حقائقها باختلاف نقلتها ، وهذا وإن شكل خطراً على التاريخ ؛فإن الخطر يكون مضاعفاً في حال الاستنباط من تلك الوقائع ، التي يطرأ على نقلها ما يطرأ.

أضرب لذلك مثلا بالأخلاق في البصرة أوائل القرن الثاني :

فإنك حين تستنبط تأريخك للأخلاق من كتب الأدب ودواوين الشعراء ستجد أمامك مجتمعاً غير مشرف في أخلاقه ؛ لغلبة التهتك والتغاضي عن المنكر؛ وشيوع الفاحشة وعدم استبشاعها ، وحين تنتقل إلى كتب التراجم ستتغير الصورة لديك ، وتجد نفسك أمام مجتمع منشغل بالعلم مُبجِّلٍ لأهله ،محبٍ لأخلاق الزهاد، منصرف إلى مجالس الوعظ . يكثر فيه الكرماء وأهل المروءات .

وحين تحاول الاستعانة بكتب الفرق والمذاهب ؛ستجد نفسك في مواجهة مجتمع منهك بالبدع ،متفرق في دينه ،سريع الاستجابة لكل داعية إلى ضلالة .

أما كتب التاريخ : فسوف تصور لك أنك أمام مجتمع لا يكاد الرجل يجلس فيه في بيته إلا ويُدعى إلى معركة، إما فتنة وإما فتحاً .

وحين يأتي من يروم التأريخ للأخلاق عن طريق الاستنباط من بين كل هذه التناقضات ؛فإنه لن يسلم من دواعي عوامل عدة ستؤثر حتما على نتيجة استنباطه ، وليس أقلَّها أثراً نزعته الفكرية ومنهجه الاعتقادي.

(٢)

لكـن النتيجـة التـي قـد يتقـارب في إثباتهـا الجميـع هـي : أن الأخلاق والطبائع تختلف سرعة تحولها من زمن إلى زمن ،ومـن مكان إلـى مكـان ، ففـي حـين تجـد المجتمعـات المنغلقـة تحـافظ علـى طبائعهـا أزمانـا قـد تصـل إلـى القـرون ؛نجـد المجتمعـات المنفتحـة يتسـارع فيهـا التغيـر الخلقـي. حتـى إنـه حتـى وربمـا لا يستغرق سنوات قليلة .

فالتاريخ المـروي للعـرب قبـل الإسـلام لا يُشـير إلـى تغيـرات خلقية حادة؛ رغم أن المدة الزمنيـة تصـل إلـى خمسـة قـرون عنـد كثير من المؤرخين ، وبعضهم يوصلها إلى أكثر من ذلك .

فحكايات طسم وجديس والعماليق وجرهم لا تُشعرنا بفـوارق تستحق الوقوف عندها بين مجتمعاتهم والمجتمعات التي يُعبر عنهـا شعر المهلهـل ،أو مـن جـاء بعـده كالسـموأل وامـرئ القـيس ، أو مـن عاصر الرسالة من بعدهم كزهير وعنترة والأعشى ولبيد .

بينمـا نجـد الأخـلاق أسـرع حركـة في الـبلاد المنفتحـة علـى الحضارات المتعددة كالشام والعراق ، وإن كانت هذه السـرعة في التحـول الخلقـي مهمـا بلغـت ؛ لا يُمكـن مقارنتهـا بمـا نلمسـه في عصرنا الحاضر من تحولات خلقية ؛شـملت جميـع أجـزاء الكـرة الأرضية ؛ وذلك للتغير الجذري في العوامل المؤثرة على التحول الخلقي على مستوى العالم بأسره .

(٣)

سرعة التحول الخلقي في عصرنا الحاضر تُشكل خطراً كبيراً جداً على جميع أمم الأرض ، فإن قِيَم الأمم عنصر مهم من عناصر استقلالها الثقافي والسياسي ، وأي تحول قِيَمِي غير محسوب المدى والاتجاه ؛سيؤثر سلباً على استقلال الأمة ؛وعلى مكانتها الحاضرة وعلى مستقبلها بمختلف آفاقه .

وإذا كانت أمم الأرض جميعاً معنية بالحفاظ على قِيَمِهَا من باب الحفاظ على هويتها المعبرة عن ذاتها وحرصاً على استقلالها ، فإن أمتنا الإسلامية يجب أن تكون أشد حرصا على التشبث بما لديها من قِيَمٍ ؛ كان عامل الدين أكثر العوامل ظهوراً في تكوينها. ولهذا أصبح ما تحمله من قِيَم جزءً لا يتجزأ من رسالتها للعالم ، وحين تفقد هذه الأمة قيمها فإنها لا تفقد حضارة أو تاريخا أو استقلالاً مجرداً؛ بل تفقد رسالة اختصها الله سبحانه وتعالى بها موجهةً للناس كافة .

(٤)

في سنواتنا الأخيرة لم يعُد التغيير القيميّ مسألة تلقائية ؛تتم بطريق تفاعل الحضارات ؛وتأثير بعضها في بعض ؛كما كان الأمر عليه من مئات السنين ، بل أصبح تغيير القيم صناعة سياسية وإستراتيجية تخطط لها دول العالم الأول ، ليس لأجل تغيِير

خلقي لا مصلحة لها فيه، كما يتوهمه البعض؛ بل بُغية الوصول عبر الأخلاق إلى هيمنة سياسية واقتصادية ؛قِوامها جذب الأمم عبر قواعدها العريضة وهي الشعوب ؛بدلاً من الفكرة القديمة التي كانت تسود العالم منذ فجر التاريخ ؛وهي الهيمنة على الأمم عن طريق قهرها سياسيا وعسكرياً.

فللهيمنة على الأمم في عصرنا الحاضر أسلوب آخر تعمل دول الاستكبار العالمي على تفعيله بشكل مصاحب لتدخلها العسكري، أو سابق له وهو تغيير القيم .

وقد أفاض في ذلك «فوكوياما» في كتابه «نهاية التاريخ» ومن قبله«هنتنجتون» في كتابه «صراع الحضارات» ومن بعدهما العديد من التقارير، عن جهات شتى، ليس هنا مجال الاستطراد في الحديث عنها .

لكنه مجال طرق الوقاية من الحروب الخلقية وهو ما أعنيه بهذه الرسالة التي أقدم لها : (نحو تأصيل فكري للممانعة المجتمعية .)

فالمجتمع هو حارس الأخلاق والقيم ، ينبغي أن يكون كذلك ؛ لأن القيم والأخلاق هما آلتاه اللاتي يتحرك بهما في يومه وليلته، بل في منامه ويقظته، وفي حل وترحاله ، وهي المُعرِّفة له بين الأمم ،بل هي المُعرِّفة به أمام نفسه .

فإذا لم يكن المجتمع حارسا على قيمه ؛فلن يُستأمن على شيء آخر أبدا.

ومن واجب المفكرين أن يبذلوا قصارى جهدهم في تنبيه الأمة إلى السلاح الذي تستطيع به حراسة ما آتاها الله إياه: من قيم وأخلاق. كما يجب على الحكام إعداد القوة لحراسة ما آتاهم الله :من أرض ورباع .

وحين أكتب هذه الرسالة فإنني آمل أن يكون ذلك بداية مشروع فكري يتعاون على إنجازه المخلصون والله من وراء القصد .

وصلى الله على نبينا محمد ،وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

محمد بن إبراهيم السعيدي

٧/ ٢/ ١٤٣٣هـ

مكة

الفصل الأول

تأصيل الممانعة المجتمعية

نشأة القِيَم:

أخلاق الأمم وآدابها ورؤاها وعباداتها وعاداتها وأعرافها والتي يمكن أن نسميها في سائر هذه الورقة قيم الأمة،الأصل فيها:أنها تنشأ من داخل تلك الأمم.

ولن يكون هذا عائقاً دون أن تؤثر الأمم في بعضها وتتأثر بحكم الجوار أو المخالطة أو أي شيء آخر، بل ربما يُعد مدى قدرة الأمة على التأثير في غيرها مقياساً متفقا عليه على قوة حضارتها بصرف النظر عن الحكم الشرعي عليها، كما أن مدى قدرتها على التأثر، يُعَد مقياسا متفقاً عليه على مدى تعلقها ببنائها الحضاري واستنباط قيمها من داخله ، بصرف النظر- أيضا -عن الحكم الشرعي على ذلك البناء.

والمفكرون يعدون الأمم التى لا تقبل التأثير الحضاري أمما منغلقة حضاريا غير قابلة للتطور، وذلك أن التطور لا يمكن أن يتم لأمة من الأمم ، دون أن تأخذ من الأمم الأخرى ؛ لأن الحضارة كما يقولون : مشترك إنساني ، لا يمكن أن تبنيه أمة وحدها.

وهذا الأمر بقدر ما هو صحيح بإطلاق في جانب الحضارة المتعلق بالمعرفة ؛ فهو صحيح إلى حدٍ ما فيما يتعلق بما تعارفنا

على تسميته- قبل قليل - بقيم الأمة ؛ والذي يتكون من : الأخلاق والآداب والعبادات والعادات والأعراف.

وذلك أن القيم للأمة الرائدة يجب أن تتكون في داخلها ؛ نتيجة لتفاعل الإنسان مع دينه وبيئته ولغته وتاريخه ومقدرات أرضه، وهى ما سنتعارف عليه في هذه الورقة بأصول القيم، فيتكون من ذلك التفاعل: كلُ ما يحكمُ الناسَ في تصرفاتهم مع محيطهم ، وتصوراتهم للكون والحياة.

إذاً فكما أن العناصر لقيم الأمة هى: الأخلاق والآداب والتصورات أو الرؤى للكون والحياة ، وكذلك العبادات و العادات والأعراف، فإن الأصابع التى تنسج هذه العناصر وتقدمها في صورتها النهائية للعالم هى: دين الأمة ، والبيئة التى تعيش فيها ، ومقدرات أرضها وتاريخها ولغتها، وهى مكونات القيم أو مادتها الخام، والتفاعل المستمر بين البشر وبين هذه المكونات ، يترتب عليه استمرارٌ في إنتاج القيم الاجتماعية للأمة، بشكل متَّسِق وغيرِ متناقض.

وحين نلحظ أن شيئـًا من قيم الأمة نشأ بعيدا عن هذه الأصول : أي نشأ من تفاعل مع دين آخر أو تاريخ آخر أو بيئة أخرى ؛ فإن هذا الخلق ، أو هذه العادة ؛ أو هذه الرؤية ؛ ستظل ناتئةً مناقضةً لسياقِ المجتمع بأسره ،بما يحمله من ثقل ثقافي كبير.

ومقدارُ معاناةِ هذا القيمة الوافدة من رفض اجتماعى يمكن أن يكون مقياساً لمدى تفاعل المجتمع مع الأصول المكونة لقِيَمِهِ الاجتماعية . والتي تَقَدَّم سردُها قبل قليل.

وحين نجد أن المجتمع قد استطاع هضم عادة، أو خلق، تكوَّنا خارج محيطه، وغَفَل عن مناقضتها لسياق هيئته الاجتماعية العامة ، فهذا يعنى أن هناك نقطة ضعف في تفاعل المجتمع مع دينه أو تاريخه أو بيئته ، وسائر الأصول المكونة لقيمه. ومن نقطة الضعف تلك ؛ يمكن أن تَفِد إلى المجتمع أشكالٌ مختلفة من القيم الدخيلة ؛ سوف تؤدي كثرتها إلى كثرة التناقضات في هيئة المجتمع،الأمر الذي سينفرج حتماً عن صورة لهذا المجتمع ، ضعيفة الصلة بالأصول المُكَوِّنَةِ لِقِيَمِه، أي: أنها ستُنتِجُ لنا مجتمعاً غير منتم لأصله ، وهذا هو الشرط الأول كى تحظى الأمة بقيم رائدة.

وقد يتفاعل المجتمع مع بعض أصول قِيَمِه دون بعض، فيتفاعل مع التاريخ أو البيئة أو المقدرات بمعزل عن الدين، وهذا هو سر نشوء أخلاق أو عادات أو تصورات ورؤى غير حميدة؛ بالرغم من كونها وُلدت ونشأت في أحضان هذا المجتمع.

ينتج عن هذا أن نعلم أن الشرط الثاني من شروط وجود قِيَم اجتماعية رائدة : أن يكون تفاعل الإنسان لإنتاج سلوك اجتماعي

، أو عادةٍ ، أو عرفٍ ، أو رؤيةٍ خاصةٍ أو عامةٍ ، مستغرقاً لكامل أصول القيم الاجتماعية، لا مع البعض دون الآخر ؛ وإلا فإننا سوف نبنى – بإغفال – بعض أصول قيمنا ، على هيئة اجتماعية محطمة.

تجربة تاريخية:

وهذا الأمر، أي: تَكَوُّنُ القيم نتيجة تفاعل الإنسان مع بعض مكوناتها الأصيلة دون بعض، هو ما حصل بالفعل في العالم الإسلامى ، عبر قرون عديدة مرت بها القِيَم الاجتماعية في مختلف بلاد المسلمين.

فقد نشأت عادات وأعراف ورؤى وتصورات سيئة جداً ، رغم أنها تكونت من داخل العالم الإسلامى . وكان السر في سوئها أنها لم تراع الدين في تكوينها غالباً ، وفي أحيان أخر، لم تراع التاريخ والبيئة واللغة، ومما يؤسف له أن الضعف في محاولات إصلاح هذا الخطأ، بل محاربة حركات أفذاذ العلماء المستمرة للإصلاح، أدت إلى سيادة الصورة المشوهة لقِيَم الأمة في العالم الإسلامى، وأصبح التخلف الفكري ، والبعد عن العقيدة الصحيحة ، وسيادة الخرافة ، والجور والتسلط ، هى السمات المعرِّفة للمسلمين، بل وأصبحت تنسب زوراً للإسلام.

وهذه الصورة المشوهة للقيم الاجتماعية الإسلامية ،هي

أكثر العوامل تأثيراً في نجاح الحروب الصليبية الأولى، كما أنها أبرز عوامل نجاح ما يُسمى بالاستعمار في العصور المتأخرة.

وبعد الاستعمار الغربى لمعظم بقاع العالم الإسلامى، بدأ المسلمون يحتضنون عناصر قِيَمِيَّةً لأمم أخرى، أي يحتضنون أخلاقًا وعاداتٍ ورؤى وتصوراتٍ نشأت في بيئات مختلفة عن البيئة الإسلامية.ونتيجة لعدم تفاعل الإنسان المسلم في عصور الاستعمار ، وما قبل عصور الاستعمار ،مع كامل أصول قِيَمِه الاجتماعية -الدين والبيئة واللغة والتاريخ ومقدرات الأرض- استطاعت هذه العناصر الدخيلة العيش بسلام في هيئتنا الاجتماعية، الأمر الذي أحدث الكثير من التناقضات بين صورة المجتمع المسلم وبين المكونات المفترضة لهيئته الاجتماعية، حيث ظهرت العناصر الوافدة على السطح وأصبحت تَحكُم علاقات المسلمين ببعضهم ، وعلاقاتهم بغيرهم ثقافيا واجتماعيًا ، بل وتحكم علاقتهم بالكون الذي يعيشون فيه ، والحياة التي يحيونها.

ومما زاد الأمر سوءاً ظهور اجتهادات فقهية، تحاول الربط بين هذه العناصر الوافدة من قيم الآخرين ،وبين الأصول المكونة لقيمنا، وأعظمها الدين، وإظهار هذه العناصر كواقع مهيمن لا

محيص عنه ، وإظهار الدين والتاريخ الإسلامى كله على شكل كائن هلامي، يمكن أن يتشكل كما تشاء الظروف.

والحقيقة التى لا ينبغى أن يغفل عنها مسلم، فضلا عن علماء المسلمين: أن الإسلام جاء لتشكيل الواقع وتغييره، لا للاستسلام له والسير على وفقه، لكن غياب هذه الحقيقة أو التغافل عنها ؛أدى إلى تهاوي كثير من أحكام الشريعة الإسلامية، أمام سلطة الواقع في العالم الإسلامى، وأصبح مظهر المسلمين لا يعبر عن دينهم ،ولا تاريخهم ،بل يعبر عن تناقضات بشعة بين هيئة اجتماعية مستوردة، وبين مكونات أصيلة تحاول الظهور بين الفينة والأخرى.

من أسباب سوء الواقع القِيَمِي:

هذا الواقع السيئ المتمثل في تناقض كثير من قيم المسلمين مع أصولهم بسبب كثرة الدخيل في : عاداتهم وعباداتهم وأخلاقهم ورؤاهم وتصوراتهم ، وعدم تفاعلهم مع أصولهم، في تكوين عناصر قِيَمِهم، هذا الواقع يرسم له المؤرخون لهذا العصر، كثيراً من الأسباب التى أدت إليه ، فيذكرون منها:هيمنة الاستعمار الغربى ، وجنوح الأمم المغلوبة إلى تقليد الأمم الغالبة بشكل تلقائى ، كما يذكرون منها : الجهل ، والاستبداد السياسي، وأشياء أخر، لا يسعنا تفصيلها الآن.

لكن الذي لا يذكرونه بشكل واضح هو : غياب الممانعة المجتمعية أو قُل: ضعف الممانعة المجتمعية.

لأن الممانعة المجتمعية لو كُتِب لها الوجود ،لاستعصت القِيَمُ على كل الأسباب التى ذكرها المؤرخون أو لم يذكروها، لكن المؤسف هو أن الممانعة المجتمعية كانت ضعيفة جداً؛ الأمر الذي جعل تلك العوامل تتضافر في تغيير صورة المجتمع المسلم ثقافيا وخلقيا ، بشكل قليل النظير في سرعته.

تعريف الممانعة المجتمعية:

وهنا يأتي دور تعريف الممانعة المجتمعية لنستكشف كيف كان ضعفها، أو انعدامها ؛ سبباً في تغير صورة المجتمعات الإسلامية ؛ وحصول هذا التناقض الواضح بين حقيقة الإسلام ؛ وصورة المجتمع المسلم.

فهى: **اقتصار المجتمع على دينه و بيئته وتاريخه ومقدرات أرضه ولغته ، في إنتاج آدابه وأخلاقه ورؤاه وعباداته وعاداته وأعرافه.**

ويلزم من هذا الاقتصار: رفض المجتمع تبنى كل أدب أو رؤية أو خُلُق أو عبادة أو عادة أو عرف ، ليس نتاجا لدينه وبيئته وتاريخه ومقدرات أرضه ولغته.

وهل يعني ذلك أن نرفض مطلقَ التأثر بالآخرين ؟

الجواب: أن المجتمع حين يكون متفاعلا مع الأصول المكونة لقيمه بشكل صحيح ؛ فإنه سيكون تلقائياً أكثر تفاعلاً مع هذه الأصول في تصفية ما يرد عليه من قيم خارجة عنه، بل إنه سوف يمارس بطريقة تلقائية أيضا ما يشبه أن نسميه توطين القيم الواردة عليه ، بحيث تدخل في سياق هيئته الاجتماعية بشكل لا يُشير أبداً إلى جذورها التاريخية.

أهمية الممانعة:

ترجع أهمية الممانعة المجتمعية إلى كونها الوسيلة الأضمن والأقوى ؛ لحفظ الهيئة الاجتماعية للأمة ؛ من أن تضمحل ؛ بعامل استجلاب قِيَم لم تصنعها الأمةُ ولم تُنتِجها بطريق التفاعل بين المجتمع وبين الأصول المكونة لقيمه ، وهى:**دينه و بيئته وتاريخه ومقدرات أرضه ولغته.**

وكذلك هى الوسيلة الأضمن لحفظ المجتمع نفسه، من أن ينتج قِيَمَاً لم يتفاعل فيها الإنسان مع كامل الأصول التى تبنى عليها القيم.

فالأمر الثاني من خلال مراجعة تاريخ الأمة هو سبب للأمر الأول. فإن إنتاج قيم غير معروضة على الدين أولاً ؛ثم على جميع أصول القيم المجتمعية التى تقدم ذكرها ؛سوف يُؤَدِّي حتماً إلى رضوخ المجتمع للقِيَم المستوردة،وذلك لأن بناءه

القِيَمِى حينذاك يكون قد اختُرق وبقوة، وهذا ما حدث فعلا في عالمنا الإسلامي.

نظرة في تاريخ القيم عند المسلمين:

إننا حين نسبُر تاريخ الأخلاق والأفكار عند المسلمين نجد أن ضعف المجتمع في جانب ما سميناه في بداية هذه الورقة بقِيَم المجتمع ؛ قد بدأت بوادره في الدبيب سريعـًا،حيث رأينا إرهاصات التغير الفكري والقِيَمِى مبكراً ؛ لدى المسلمين بشكل غير متناسب مع القوة التي بدأ بها الإسلام.

وحين نقرأ كتابـًا أُلِّفَ في وقت مبكر من تاريخ الإسلام ، وهو «كتاب مقالات الإسلاميين» لأبى الحسن الأشعري (ت٣٢٤) فإنه ليصيبنا الذهول من كثرة النزاعات العقدية بين المسلمين في وقت مبكر.

وإذا انتقلنا سريعـًا إلى العصر الحديث وطوالعه ؛ نجد أيضا أن القِيَم الاجتماعية الدخيلة قد صبغت المجتمع المسلم بشكل سريع؛ لا يتناسب أبداً مع ما في الإسلام من دعوات متكررة بالالتزام والتمسك.

ولم تكن مشكلة المسلمين فقط مع القيم الوافدة، بل أيضا مع القيم التى تشكلت خطأ، أي دون تفاعل كامل وصحيح مع ما سميناه أصول القيم في المجتمع المسلم.

فتنحية فهم الصحابة الكرام للكتاب والسنة منذ وقت مبكر عن الحكم على القيم والرؤى وغيرها ، لدى عدد من البيئات الاجتماعية الإسلامية :كالبيئة الخارجية ، والبيئة المتشيعة ، أدى إلى نشوء الابتداع في الدين، وتوالت البدَعُ ابتداء من تغير الرؤى والتصورات للدين والكون والحياة ، على هيئة آراء في القضاء والقدر والحكم والعدل وصفات الباري عز وجل، ودون انتهاء إلى ما تجاوز العقيدة إلى العبادات ، فلم تنته عند زيادة عبادات في الدين لم يأذن بها الله تعالى ، بل وصلت بالناس إلى الإشراك بالله تعالى، دون أن يشعروا ؛ وذلك بصرف أشياء من العبادة لغير وجهه سبحانه وتعالى. واستمر هذا الوضع في تزايد حتى غلبت تلك البدع في ظهورها وسيطرتها على صحيحَ التصورات والعبادات الواردة في كتاب الله وسنة رسوله.

كما أدى ذلك إلى رواج الخرافة بين المسلين، ثم إلباسها لباس الدين ، حتى أصبحت الكهانة والعرافة والسحر - وهى من المحرمات نصا- تسمى بالسيادة ويسمى أصحابها بالأسياد أو أهل الله،ويُعطون عند الناس، وربما عند الكبراء منهم ، منزلة لا يحصل عليها الكثير من أكابر العلماء.

فلم تكن المشكلة آنذاك قِيَمًا وافدة -وإن كان فيها قدرٌ لا بأس به من الوافدة- بل كانت المشكلة في تكوين قيم ومفاهيم

من داخل الأمة ولكن الأمة كونتها بمعزلٍ عن الأصول المفترضة للقيم في الأمة المسلمة وبخاصة الدين بمصدريه العظيمين الكتاب والسنة.

فما الذي حدث أخيراً؟.

الذي حدث: أن المجتمع المسلم كان منشغلاً بالقِيم الاجتماعية التى نسجها لنفسه دون إجراء التفاعل الصحيح مع أصوله، أي أنه كان يعيش تناقضـاً كبيراً جداً بين قيمه المصطنعة ،وبين جذوره التى ترفض هذه القيم . الأمر الذي أحدث جهلاً وضعفا كبيراً في النفسية المسلمة ، وهو ما سهل الطريق أمام عادات الغرب وتقاليده ورؤاه ؛ لتصبغ المجتمعات المسلمة وتَطبَعَهَا بِطَابَعِهَا.

هنالك بدأت عناصر الهيئةِ الغريبةِ السائدةِ في المجتمع الغربى تنتقل بسرعة عجيبة إلى العالم الإسلامى ،ويتقبلها المجتمع المسلم بشكل ملفت للنظر. فالغرب المستعمر لم يحضر بكامله في بلاد المسلمين ، وإنما أرسل قليلا من أبنائه على هيئة عسكريين - في الغالب - وفي أحيان على هيئة علماء ومستشرقين وعمال، ومع كل هذا يظلون قلة قليلة، لا يستطيعون عند حساب المسألة حسابا منطقيـاً ، أن يغيروا وجه مجتمع عريقِ في قِيمه وحضارته بهذه الصورة السريعة،لكن الأمر الذي سهل

لقيم الحضارة الغربية الولوج إلى المجتمع المسلم وصبغه بصبغتها ،كونُ المجتمع لم يفعل سوى أن استبدل قِيَماً اجتماعيةً مناقضة لجذوره،مستوردة من الغرب،بقيم أخرى مناقضة لتلك الجذور أيضا ،لكنه صنعها بنفسه،أي أن ما صنعه المجتمع إنما هو استبدال قيم مناقضة بقيم أخرى لا تقل عنها مناقضة، وربما سَرَّع في هذا الاستبدال أن يكون قد وَجَدَ في القِيَم الجديدة من احترام العقل والاستمتاع بالحياة في إطار من العلم والهيمنة ما لم يجده في هيئته الأولى، التى صنعها بنفسه ،بعيداً عن أصوله ، وكانت هيئةً مُعتِمَةً تحكمها الخرافة والجهل.

ما الذي حدث حتى تتناقض جذور المجتمع المسلم مع هيئته الاجتماعية بسرعة لا تتناسب مع قوة التشريع الذي أسند إليه؟ سواء أكان ذلك التناقض بسبب تغيير فكري وخلقى من داخل المجتمع ، كما هو الحال في العصور الأولى والوسطى من تاريخ المسلمين، أم باستيراد هيئات اجتماعية غريبة على الأمة لتكون هي الصورة المعبرة عنها؟.

الذي حدث فيما يظهر لى هو ضعف الممانعة المجتمعية في كلا الحالتين.

فالمجتمع تخلى عن مسؤوليته في حفظ أخلاقه وعباداته وعاداته وتصوراته ، عن طريق عرضها على دينه وتاريخه الخاص

به، وبيئته التى يتحرك خلالها ، ومقدراته التى يعيش بها ، ولغته التى يتحدث بها. تخلى عن مسؤوليته تلك، وقَبل التمرد على فهم الصحابة للدين من وقت مبكر في تاريخه ، فبدأت تنشأ القيم والأفكار بمعزل عن الدين ، وعن خصوصية التاريخ والبيئة ؛ حتى وصل الإسلام في بلاده إلى مرحلة الغربة ؛ التى أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبا للغرباء**».

فالمجتمع لم يُقَاوِم مظاهرَ الترفِ والاستخفافِ بالمعاصى منذ بواكير الدولة المروانية ، حيث بدأت هذه البوادر من مأرز الإسلام من مكة والمدينة، ولم يقاوم جاهلية الأدب المتمثلة في نقائض جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم، ولم يقاوم حركة الأدب المتهتك على يد عمر بن أبى ربيعة والعرجى ونصيب والأحوص، ولم يقاوم الفتنة بين النزارية واليمانية.

كما لم يقاوم بدعة الإرجاء والجبر وتكفير الصحابة الكرام والصد عن سبيلهم.

كما- أنه أيضا لم يقاوم بدعتى النصب والتشيع على حد سواء.

كل هذه المشكلات التى لا يقرها الإسلام ظهرت جلية في المائة الأولى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكانت مقاومتها تتلخص في فتاوى للعلماء العظماء في ذلك الوقت، لكن هذه الفتاوى لم تكن نتائجها تظهر على هيئة استجابة سريعة من المجتمع؛ للوقوف ضد هذه الانحرافات.

والسبب في ذلك - في زعمى - هو أن تلك المشكلات كانت: إما قليلة الظهور، بحكم تباعد الأمكنة بين المسلمين ،وضعف انتشار حدوث المنكر،وإما قليلة الأثر كبعض البدع العقدية التي تقدم ذكرها.

لذلك لم تكن تشغل بال المجتمع المسلم كثيراً، وهو ينظر إلى واقعه الذي يطغى فيه الخير وحب السنة وتوقير العلماء.

يضاف إلى ذلك: كثرة حديثى الإسلام من الأمم الأخرى، وقلة الذين عاصروا الرسالة بين عوام الناس.

ولعل الأسوأ من أسباب ضعف الممانعة في ما بعد الثلث الأول من تاريخ الإسلام: أن المجتمع المسلم قد انشغل عن مقاومة هذه الظواهر بالفتن العظمى، والتى طالت الدماء، والتى يَعُدُّها المؤرخون سببـًا في نشوء كثير من الأفكار الغريبة عن منهج الصحابة ،كفتنة القول بالقدر، والنصب ،والتكفير. والتى نشأت كردات فعل من بعض من لم يتمثل منهج الصحابة الكرام على ما شجر بينهم من نزاع ،وما حصل بعد الخلافة الراشدة من ملك عضوض.

وعدم السرعة في الاستجابة من المجتمع آنذاك لمحق المنكر في مهده، مهما بررنا له ، كان هو الغرسة الأولى للانحراف بالأمة الإسلامية عن حقيقة دينها، فقد تطورت بدعة القدر والإرجاء إلى مذاهب أصبحت هى السائدة بين المسلمين :كالجهمية والمعتزلة والكلابية والأشعرية والماتريدية. وتطورت بدعة التشيع ليخرج منها مذاهب شتى لا حصر لها، وكذلك ما كان من أمر التصوف الذي نتج عنه القول بالحلول والاتحاد ووحدة الأديان.

ولا شك أن لهذا الضعف في الممانعة في تلك العصور المتقدمة أسبابه المختلفة ، التى يمكن للمؤرخين دراستها ،لكن الذي يجب أن نستفيده منها كمرحلة تاريخية، هو خطر الركون إلى ظاهر المجتمع الجيد أو إلى الدولة القائمة بشرع الله تعالى ؛ لمنع تسرب الخلل في الهيئة المجتمعية. بل يجب أن نركز على واجب الأمة في التنبه إلى مسؤوليتها في نفى الخلل عنها ، وهو ما يسمى بالممانعة المجتمعية.

أما عصرنا الحديث:

فقد كان بُعدُ المجتمعات المسلمة فيه عن تحمل مسؤوليتها ، في مقاومة تغيير هيئته الاجتماعية ،أظهر من أن يُستدل عليه، يدل على ذلك نظرةٌ دقيقة في التاريخ الحديث للمجتمعات الإسلامية

لتجد أن شيوع القِيَم المستوردة فيها لم يستغرق من الزمن ما يمكن أن يتناسب مع عظمة الإسلام ،الذي تدين به تلك الشعوب.

وليس أمامنا إلا أن نقبل كل الأسباب التى يُقدمها المؤرخون لهذا التدهور السريع، و لكن الذي لا ينبغى الغفلة عنه هو :أن الممانعة المجتمعية يزداد بؤسها في أكثر الدول الإسلامية استجابة لهذه التغييرات.

من هذه الإلماحة التاريخية يمكن أن نُحَمِّل الممانعة المجتمعية مسؤولية الحفاظ على هوية الأمة المسلمة ،وهو ما ينبغى أن يتعلمه المسلمون، فالحفاظ على القيم ليس مسؤولية الدول وحدها ، وليس مسؤولية العلماء وحدهم لكنه مسؤولية المجتمع بأسره، بجميع أفراده ،وليس العلماء ورجال الدولة إلا أعضاء في بناء المجتمع.

وسوف أتحدث عن كيفية دعم الممانعة المجتمعية، والموقع الصحيح فيها للدولة والعلماء ،بعد أن أجيب عن سؤال مفترض، وهو:

هل نادى الإسلام بمثل هذه الممانعة المجتمعية ؟

قطعـًا، المصطلح جديد ولا أعلم أول من أبرزه، كما أننى أظن أن الهدف من إبرازه كان نقد ممانعة المجتمع ضد القيم

الوافدة، وهى النبرةُ التى لا نزال نستمع إليها من كثير من الكتاب ، ومن بعض المحسوبين على طلب العلم الشرعى أيضا، مع تباين كبير بين مرادهم من الممانعة ،ومرادِنا منها، لكن ما نقصده بالممانعة وهو ما لخصته في التعريف المقترح لها ،أجد أن آيات الكتاب العظيم وكثير من التشريعات الإسلامية تصب في صالح الدعوة إليه، أي الدعوة إلى أن يكون المجتمع المسلم منفرداً ببناء قيمه التى تتلخص في: آدابه وأخلاقه ورؤاه وعباداته وعاداته وأعرافه. وأن تكون تلك القِيم مستمدة من دينه، الذي لا بد أن يكون مصدراً وحاكماً، وكذلك بيئته وتاريخه ومقدرات أرضه ولغته.

ومن ذلك:

أولا : ترسيخ مفهوم الخيرية والفضل على جميع الأمم لدى المسلمين ، وأن مصدر هذه الخيرية إنما هو الالتزام بالدين وتعاليمه ، وليس له مصدر آخر عِرقى أو إقليمى، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣]، قال المفسرون: وسطا، أي: خيارا وعدولا،فالمجتمع الذي يشعر بخيريته على الأمم جميعها، واعتلائه عليها بمنصب الشهادة عليها يوم القيامة ،لا يمكن أن يكون مجتمعا متهافتاً إلى ما تنتجه

تلك الأمم من قِيم مخالفة لما لديه، وبعكس ذلك حين يغيب الشعور بالخيرية عن مجموع المجتمع ؛فإن الذي يحل محله -في ظروف الضعف السياسى والاقتصادي والعسكري -هو الشعور بالنقص والهوان أمام تلك الأمم، وهو ما يجعل الرؤوس والصدور والبيوت مُشرَعةً أمام كل تغيير يأتيها من قبل هذه الأمة الغالبة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١٠].

وهذه الآية ربطت بين التأكيد على خيرية هذه الأمة ،وبين أسلوب من أساليب الممانعة المجتمعية وهو: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فكان هذا الأسلوب هو التكليف الذي تحقق الأمة به خَيريَّتَها على الأرض بصورة عملية، كما أن الإيمان بالله يحقق خيريتها بصورة اعتقادية.

وهذا الشعور بالخيرية نجده أشد ما يكون ضآلة لدى المسلمين في الأوقات التى يكثر فيها تهافتهم على قِيم غيرهم من الأمم، التى فضلهم الله تعالى عليها، الأمر الذي يؤكد على هذا الارتباط الوثيق بين شعور الأمة بخيريتها ومناعة قِيَمِها.

ثانيًا : إلحاح آيات الكتاب العزيز على شعيرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واللافت أن التكليف بهذه الشعيرة لم يأت على هيئة أمر بها في القرآن الكريم، وإنما في معرض سرد صفات المؤمنين سوى آية واحدة وهى قوله تعالى:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤] وهى عند التأمل لا تخرج عن هذه القاعدة كثيراً ؛ إذ هى في سياق صفات المؤمنين أيضا.

أما سائر الآيات فهى واضحة في الدلالة على ما بينت، انظر مثلا قوله سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران:١١٠]

وقوله سبحانه ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران:١١٤]

وقوله عز وجل: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٧١]

وقوله سبحانه: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢]

وهذا الأسلوب القرآني - في تقديري ، والله تعالى أعلم- أمكنُ في التعبير عن مكانة هذه الشعيرة ؛ إذ إن إيرادها في مساق صفات أهل الإيمان مشعر بأنها من لوازمه.

كما أن الموصوف بها ليس فئة من المؤمنين دون فئة بل يستوي في وجوب الاتصاف بها المؤمن الحاكم مع المؤمن المحكوم ، والرجل والمرأة ، والصغير والكبير ، والحر والعبد.

بل حتى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١] ليس خاصاً بالحكام دون المحكومين، بل هو وصف لكل مؤمن. وإن كانت الآية تشير بلفظ التمكين إلى أن المسؤولية في جانب الشعائر المذكورة ترتفع بارتفاع القدر الذي آتاه اللهُ العبد من التمكين في هذه الأرض، فليست مسؤولية المحكوم عن هذه الشعيرة بالقدر نفسه الذي للحاكم.

وتحميل الأمة عبء هذه الشعيرة ؛ لتكون مسؤولية الحفاظ على الدين بما يحمله وما يرشد إليه ؛ وما ينتجه تفاعل الإنسان

معه من قيم ؛هي مسؤوليتها بأسرها.

وهذا عدل إلهى عظيم منه سبحانه وتعالى حيث إن العاقبة الدنيوية للتفريط في منهج الله عز وجل تَطَال الجميع لا تفرق بين حاكم ومحكوم ولا رفيع ووضيع:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤]

وجميع الآيات التى تُذَكِّر بعاقبة التخلى عن أمر الله ؛ نجد الخطاب فيها عامـًا للمجتمع بأسره ؛ لأن التقصير حادث من الجميع ؛ ولا تُسأل عنه فئة دون أخرى.

إلا أن القائمين بتكليف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد يثيبهم الله تعالى النجاة من هذا السخط العام ؛وذلك في حال أدائهم لهذا الواجب ؛ كما أمروا به ؛ وصبرهم على ما يلاقون من تقصير أقوامهم ؛ وتخذيلهم إياهم عمَّا يقومون به من موعظة ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾[الأعراف: ١٦٥-١٦٤]

ثالثـًا : مبدأ التواصى أقرته سورتا البلد والعصر، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾

[البلد:١٧] وقال سبحانه: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣]

والتواصى تكليف أعم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وصفته: أن يُثَبِّتَ المؤمنون العاملون بالصالحات والمتراحمون بين بعضهم بعضـًا على هذه الخصال، ويتعاهدون أحوالهم فيما بينهم فيما يُشبه أن يكون عملية مراجعة وتحديث لقوة هذه الخصال في نفس الأمة، وهو ما عبَّر عنه القرآن بالنفع في قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٥] ، فالتذكير هو الأسلوب الأمثل للتواصى المؤدي إلى النفع، والنفع -كما لا يخفى- كلمة جامعة يدخل فيها كل ما هو ضد الضُر، أي أن كل ما يكسب المؤمنين زيادة تنأى بهم عمَّا يُلحق الضر بدينهم، من التثبيت عليه ، وزيادة المنعة في الاستمساك به ، وبما يصنعه الدين في النفوس من قيم وأخلاق.

ونجد أن التواصى جاء في القرآن مختصا بالحق والصبر والمرحمة، ذاك أن الحق هو الدين بعقائده وشرائعه وما يؤدي إليها، وما يحفظها، والصبر أهم الأدوات للمحافظة على هذا الحق الذي يتعارض كثيراً مع أهواء النفوس، التى تميل بشكل طَبعي إلى الإغراق في اتباع الملذات، فلم يكن من سبيل للتمسك

بالحق سوى الصبر.

أما المرحمة فهى ضمانة مهمة لتماسك المجتمع المسلم وتضامنه ، حيث إن الرحمة صفة محركة للمخلوق تدفعه إلى فعل شيء من أجل حفظ إخوانه من الضرر. ومن الضرر ما هو ظاهر يدركه المؤمن وغيره، ومن الضرر ما ليس بظاهر، بل هو خفي جداً لا يدركه حق إدراكه سوى المؤمين.

وهذا الضرر الخفى الذي يقتصر إدراكه على المؤمنين، هو الضرر الناتج عن عدم التبصر في عواقب التفريط في أوامر الله تعالى ، أو التهاون في كل ما من شأنه أن يؤدي إلى شيء من هذا التفريط ، أو التهاون حالاً أو مآلا.

الناتج من هذا أن التواصى شعيرة ربانية جاءت لتقوية الممانعة المجتمعية التي يجري الحديث حولها.

الرابع : من شواهد مناداة الإسلام بالممانعة المجتمعية : عقيدة الولاء والبراء، وقد يتشنج البعض لدى تسميتها عقيدةً، لكن أحداً لا يستطيع أن ينكر أنها من الظهور، بحيث يحتاج تأويلها إلى غير هذين المعنيين : (مودة المؤمنين ومباغضة الكافرين) إلى تعسف تأويل كامل القرآن أو أكثره.

ومباغضة الكافر لما ينطوي عليه قلبه من عقيدة أهل النار؛ تسوق القلوب المؤمنة إلى مجافاة ما يأتي به من قِيَم. ولا شك أنها

طريقة ممتازة لحفظ الهيئة المجتمعية للمسلمين من الاختراق، سواء أكان ذلك اختراقا قِيَمِيًا أو عسكريـًا.

وشواهد التاريخ لعلاقة المسلمين بغيرهم تؤكد على أن الاختراق العسكري لم يتمكن منه أعداء الإسلام إلا بعد مرحلة أولى من تحطيم حاجز البراء من الكافرين ،لدى المجتمعات المسلمة المخترقة.

والمطلع على سيرة (لورنس العرب)وقدرته العجيبة على تجييش العرب المسلمين لمصالح بريطانيا آنذاك، يدرك أثر غياب عقيدة الولاء والبراء لدى المسلمين فيما حققه ذلك الرجل من نجاحات.

الخامس: النهى المتواصل من الرسول صلى الله عليه وسلم عن مشابهة الكافرين بجميع أصنافهم ،وفي كل شيء قد يوهم التقاءً في الهيئة بين المسلمين وغيرهم. جاء ذلك تارة على سبيل النهى عن المشابهة على الإطلاق، وتارات أخر على سبيل النهى عن أحوال خاصة من المشابهة.

فمن الأول قوله عليه الصلاة والسلام:« **من تشبه بقوم فهو منهم** » رواه أحمد وأبو داود، وقوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: « **ليس منا من تشبه بغيرنا ،لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى** » رواه الترمذي.

أما الثاني فمنه ما هو في العبادات ،ومنه ما هو في الهيئات. فكان من العبادات نهيه صلى الله عليه وسلم عن مشابهتهم في أوقات الصلاة .فكان وقت طلوع الشمس ووقت غروبها ،من أوقات النهى لهذه العلة. وكذلك نهى عن خلع النعال في الصلاة مخالفة لليهود، فيما رواه مسلم عنه صلى الله عليه وسلم: «**خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم وخفافهم**»

وأمره صلى الله عليه وسلم بأكلة السحور، وبتعجيل الفطر في الصوم ؛مخالفة لهم فيما رواه مسلم: «**فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب: أكلة السحر**» وفيما أخرجه أبو داود قال النبى صلى الله عليه وسلم:«**لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر؛ لأن اليهود والنصارى يؤخرون**».

ومن أمره بمخالفتهم في الهيئة: ما رواه البخاري عن رسول الله ^: «**إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم**» وكذلك ما رواه البخاري: «**جزوا الشوارب وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس.**»

ومن المخالفة في الهيئة: المخالفة في اللباس . ففى الصحيحين عن أبى عثمان النهدي، قال: كتب إلينا عمر (رضى الله عنه) ونحن بأذربيجان، مع عتبة بن فرقد: «**يا عتبة إنه ليس من كد أبيك، ولا من كد أمك، فأشبع المسلمين في رحالهم، مما**

تشبع منه في رحلك، وإياكم والتنعم، وزي أهل الشرك، ولبوس الحرير، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم: نهى عن لبس الحرير، قال: إلا هكذا، ورفع لنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأصبعيه: الوسطى والسبابة وضمهما».

وكذلك مخالفتهم في آنية الطعام «**لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**».

والمتتبع لأمثلة هذه الأحكام يجدها في السنة كثيرة ،حتى أصبح جنس المخالفة للكافرين من المتواتر المعنوي في الإسلام. وما ذاك إلا لصيانة المجتمع المسلم.

فإن هذه الأمور التى نُهى المسلم فيها عن التشبه بالكافرين ، قد يراها البعض بعيدة عن القِيَم وعن أصولها ؛ ولهذا لا يعرف حكمة النهى، مما دفع العض إلى إنكار حكم مخالفة الكفار بالكلية؛ جريـاً على البدعة الجديدة في إنكار كل حكم لا يدركون حكمته.

والتأمل الدقيق يوصلك إلى أن المبالغة في النهى عن التشبه بالكفار، كانت مرادة لتعظيم الحاجز بين المسلمين وغيرهم ؛ وذاك أن المشابهة في الظواهر والعادات واللباس وغيرها ؛ توصل حتمـاً إلى ضعف الحاجز الحضاري بين الفريقين ؛ الأمر الذي

سوف يؤدي حتماً إلى زوال الهوية الداخلية ؛ بعد انكسار حاجز المخالفة الظاهرية.

ومع هذا التأكيد المستمر على المخالفة في العادات والعبادات جاء النص على النهى عن اتباعهم في الأفكار، وهو ما سماه القرآن أهواءً، وجاء النهى فيه شديداً على مثال قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨]

ومثل ذلك جاء في سورة الأنعام (١٥٠) والشورى (١٥) والجاثية (١٨).

كل هذه الأمور الخمسة مجتمعة تؤكد على :عناية الإسلام بممناعة المجتمع ضد القيم الأجنبية وتأكيده على أن يكون مجموع تلك القيم التى تصنعها الأمة نتيجة ذلك التفاعل الذي قدمناه، بين الإنسان المسلم وبين مصادر قِيَمِه.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني

مفاهيم وأصول في :

الممانعة المجتمعية

في الورقة السابقة تحدثت عمَّا أزعم أنه نواة أو بداية لمشروع تأصيل فكري للممانعة المجتمعية ، وهي في الأصل قيمة إيجابية ، أو قُل فطرةٌ مركبةٌ في البِنيَة الجمعية لكل أمة، وهي بالتالي مسؤولة عن المحافظة على سِمَاتها المُعَرِّفة لها بين الأمم.

وقد تتسم قِيَمُ بعضِ الأمم بقليلٍ أو كثيرٍ من الفساد ، وعند محاولة إصلاحه ينشط جهاز الممانعة لدى الأمة في الحشد لمقاومة هذا الإصلاح ،لا على على اعتباره إصلاحاً ، بل لأن بنية المجتمع القِيَمِيَّة مُهَيأة فطرياً للتوجس من كل تغيير كسلاح طبيعي للدفاع عن بقائها .إذ الأممُ بل والمجتمعات المُكَوِّنة لها أشد إدراكاً من أفرادها لكون القِيَم خطَّ الدفاع الأول في المعركة الدنيوية من أجل البقاء.

ولعله لذلك كانت هذه حجةَ آل فرعون في تعبئتهم المعنوية للسحرة : ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾ [طه : ٦٣]

فهم يروجون لكون دعوة موسى وهرون عليهما السلام، ليست تغييراً عقدياً كما هي صورته الظاهرة، بل هو تغيير يُراد به نسف مكتسبات المجتمع الحضارية من جذورها .

ومثله ما جاء في سورة غافر ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾

[غافر: ٢٦] ففرعون في هذه الآية، يتصنع الشفقة على ما عليه قومه من صلاح مزعوم في الأحوال ، يقدم الخشية على زوالها كدعاية لتحصيل الدعم للقضاء عليه .

وكذالك حَمَلَت الدعايةُ الشيطانيةِ ضدَّ دعوةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعنى نفسه ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص: ٦].

أي يراد بما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم زوال نعم قوم ، وغِيَرٌ تنزل بهم ، كما ذكر القرطبي .

ففرعون ومشركوا قريش حاولوا تلمس هذه النزعة الفطرية لدى المجتمعات ، وهي إحساسها بأن زوال قيمها مؤذن بزوالها ، فصوروا دعوة التوحيد على أنها اجتثاث لهم .

المفهوم الأول : الإرجاع إلى الأصل

وهذه النزعة الفطرية لدى الأمم وإن كانت في أصلها خيراً، يجب استثماره في الإصلاح ؛ إلا أنها من أبرز المظاهر الثقافية التي تصنع العراقيل في وجه الدعاة ؛ في كل زمان ومكان، لا سيما حين يعمد قادةُ الرأي في البيئات المستهدفة إلى إيقاظها واستثمارها كما فعل فرعون والملأ من قريش.

لكن الطريقة المُثلى في مجادلة أرباب هذه الدعاية هي ردُّها عليهم وتنبيه البيئة المستهدفة إلى أن هدف الدعوة هو :إعادة المجتمع إلى أصله ، وأن ما هو عليه الآن ليس الأصل الذي ينبغي الدفاع عنه ، بل هو الدَّخيل الذي يجب عليه التحرك لنفيه والتطهر منه .

كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣ – ٢٤].

وهي طريقة في الجدال وبيان الحق ؛ تستثمر أيضا جِبِلَّة المجتمع في الدفاع عن قِيَمِه ، بتوجيهها لنفي الدخيل عن طريق إيضاح مكانة المألوف والموروث ،الذي قد يكون هو الدَّخِيل الذي ينبغي التخلص منه ، قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ولا يقتصر الأمر على العقائد والديانات ، بل حتى الرذائل التي تستمرؤها بعض المجتمعات ، تجد لها مدافعين على هذه الشاكلة ، يحتجون لاستمرارها بصنيع الآباء ، ولا مناص من بيان أن صنيع الأجيال السابقة ليس حجة للفساد ؛ إذ إن أصل المجتمع النقاء من السوء ، حتى لو صيَّرته كثرته إلفًا شبيهًا بالمشروع ديانة

ولقد تصور المشركون أن وِجدانهم الآباء على أمر ؛ دليلُ كونِه مأموراً به من الله تعالى ، وقد أمر جلَّ وعلى بإرشادهم إلى أنه ثَمَّت طريق لتمييز أوامره سبحانه من مُحدثات الأمور ، وهو عرض تلك المُحدثات على جوامع شريعة الله ؛فإن خالفها فلن يكون من أمر الله أبدا، ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨ - ٢٩].

وهذه إحدى صور الإرجاع إلى الأصل الذي فطر الله الناس عليه ، وهو كونهم أمة واحدة ، والإرجاع إلى مفهوم الأمة الأصل منهج إقناعي تجده كثيراً في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، والاقناع

بهذا الأصل يوحي بالدعوة لتضافر المجتمعات لنفي ما يتعارض مع قِيَم الأمة الأصل ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ١٩].

جاء في الحديث القدسي :« **خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا** ».

[صحيح مسلم : (٤/ ٢١٩٧)]

وهو الأصل الذي يجب أن تكون ممانعة الأمم عليه، وليس على ما طرأ بعده مما يُخالفه.

ولهذا فإن تحديد معالم الأمة الواحدة التي كان الناس عليها قبل اجتيال الشياطين ، أحد أهم ما يُستعان به على ممانعة المجتمعات، عن طريق نفي ما يتعارض مع هذه المعالم، والتي جاءت لبيانها آياتٌ عديدة تُبَيِّنُ جوامع الشريعة من آوامر ونواهي . ويمكن من خلال مداومة عرض المستجدات على هذه الجوامع تمييز ما يُحبه الله ويرضاه ، مما يسخطه ويأباه، والملحوظ في بعض هذه الآيات أن الخطاب فيها لم يكن خاصا ، حتى يكون المجتمع بأسره مخاطبًا به ، وليس العلماء المبلغون وحسب، إذ إن الممانعة والحفاظ على شريعة الله ليست خاصة بأهل العلم،

بل منوطة بالأمة بأسرها، وربما قلنا إن العلماء ليس في وسعهم القيام بهذه المهمة وحدهم ما لم يُمَكِّنهم مجتمعهم من ذلك.

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

- ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣].

- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أيضا يقدمان آيات وأحاديث كثيرة، تجتمع تحت عباراتها المطلقة أو العامة الكثير من التشريعات ، وليس ذلك لتكوين قواعد فقهية تساعد المجتهد على جمع الأحكام ، بل لتكون مُعَرِّفاتٍ للشرع الحكيم لدى المُتَعبِّدين به ، من المسلمين أو المدعويين إليه من غيرهم .

وهذه المُعَرِّفات كفيلة بحفظ الدين، لدى المجتمعات التي تدين به، من أي شوائب يُرادُ لها أن تُخلط به.

وحفظُ الدين من هذه الشوائب ؛ يستدعي حفظ كل ما يُحيط به : من أعراف وعادات ورؤى ، وتصورات للكون والحياة .

وحين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابصة بن معبد باستفتاء نفسه وقلبه ، فهو بالتأكيد لم يأمره باتخاذهما مرجعاً أو حكماً على تصرفاته ، بل أحاله صلى الله عليه وسلم إلى ما استقر في قلبه من هذه القواعد المُعَرِّفة للشرع ، ولنستمع إلى رواية وابصة رضي الله عنه عند الدارمي وغيره: «عن وابصة بن معبد الأسدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لوابصة: جئت تسأل عن البر والأثم ؟ قال : قلت نعم . قال : فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال: استفت نفسك استفت قلبك يا وابصة ثلاثا، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك » . [سنن الدارمي (٢/ ٣٢٠)]

ومن هنا تظهر ضرورة توعية المجتمعات وتربية نشئها على معاني هذه الآيات والأحاديث ، التي تدور عليها معظم أحكام الشريعة ؛ لأن المجتمع الواعي بها يستطيع خوض غمار أصعب المعارك الحضارية والخروج منها منتصراً ، والنصر في معارك الحضارة يعني أشياء كثيرة أهمها : الاستفادة من منتجات الحضارات الأخرى والخروج دون جراح.

المفهوم الثاني: مبدأ التواصي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

في الجزء الأول من هذه الورقة ذكرت أموراً خمسة تدل على مناداة القرآن الكريم بالممانعة المجتمعية ، وهي: ترسيخ مفهوم الخيرية لهذه الأمة، والتأكيد على شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالتواصي بالحق والصبر والمرحمة، والتأكيد على عقيدة الولاء والبراء، والنهي عن التشبه بالكافرين.

وقيام الأمة بهذه الأمور مجتمعة ؛ يحقق لها من المناعة ؛ مما يكفل لها تحقيق النجاح في الحفاظ على الخيرية ، التي تقوم على اعتبار دينها هو المعيار الأوحد ؛ لتمييز المعروف من المنكر .

كما يضمن بقاء قِيَمِها مؤثرةً مستفيدة، والتأثير والاستفادة ، هما :عنوان حياة الأمة ، لأن الأمم التي لا تؤثر ولا تستفيد هي الأمم المُلغَاة ، أي التي تجاوز الخضوع أبدانها إلى طريقتها في العيش والتفكير . وهو ما يُوصف بالتأثر ، أما الأمم الحَيَّة في التي تستفيد دون أن تتأثر، والفرق بين الاستفادة والتأثر: أن الأولى تَنتُجُ عن قدرة تلقائية للأمة على أمرين متلازمين :

الأول: الانتقاء من ثمار حضارات الأمم الأخرى ، ما لا يُناقض قِيَمَهَا حالاً أو مآلا.

الآخر: إذابة تلك الثمار المنتقاة في بنيتها القِيَمِيَة ، بحيث تستفيد منها دون أن يكون لها شكل ظاهر مستقل .

أما التأثر فهو نتاج عجز الأمة عن تلك القدرة التلقائية على الانتقاء والإذابة ، فهي دون أن تَشعر فاقدةُ الإرادةِ فيما تحصلُ عليه من قِيَم الآخرين ، فلا تشعر إلا وقد التصق بها من أفهامهم وعاداتهم وطرائقهم في العيش والتفكير ما هو ظاهر المناقضة لمكونات قِيمها ، وتظل هذه المناقضات تكثر في ساحتها حتى تختفي حقيقتُها أو تكاد.

ويمكن أن نُمثل للاستفادة ، بما جناه العرب من طبائع تتناسب وَالبيئة الحضرية التي استقروا فيها بعد الفتح الإسلامي ،من اكتساب للصنائع التي كانت معيبة في البيئة الأعرابية قبل الفتوحات ، وبعد اكتسابها لم تُشكِّل نتوءاً يُخل بالانسجام بينها وبين القِيَم الأخرى، أو مُكوِّنات تلك القِيَم ، حتى إنه لا يكاد غيرُ الباحثين يُدركون أنها قِيمةٌ مكتسبةٌ من الخُلطة بالحضارات الجديدة.

أما التأثر فالأمثلة له أوضح وأكثر في تاريخ قيمنا قديمه وحديثه ، ما كان منها في جانب الأخلاق أو العادات أو العقائد والعبادات .

فالمنادمة والمخادنة والطَّبقِيَّةُ وطُقُوس الصوفية وتعبداتهم ، كُلُها مستجداتٌ على العرب القادمين إلى تلك البلاد ؛ يحملون قِيَم الإسلام ؛ التي ظهرت فيها تلك المستجدات ناتئةً منها ؛ مُشَوِّهة لصورتها .

أما عصرنا الحاضر فقد حَفل في بعض مجتمعات المسلمين بما زَيَّف الصورة كاملة ، بحيث لم تَعُد النظرةُ ولا النظرتان ولا الثلاث كافية ؛ لمتييز ذلك المجتمع المسلم من غيره من المجتمعات الكافرة.

إن قِيم الأمة التي تحدثنا - في أول الورقة - أنها تتكون من الأخلاق والرؤى والعبادات والعادات والأعراف ، تتكون- كما سبق بيانه أيضا - بتفاعل الإنسان مع دينه وبيئته ولغته وتاريخه ومقدرات أرضه ، ويدخل الخلل في قيم الأمة حين تبدأ قِيم أخرى في التسلل إلى المجتمع، ليست نتاج تفاعل الإنسان مع هذه المكونات ، بل مع دينٍ آخر أو بيئة أخرى، أو لغة غير لغته، أو تاريخ ليس له ، أو مقدرات أرض تختلف عن أرضه.

وهذا التسلل لا يكون إلا نتاج ضعف تفاعل الإنسان مع مكونات قيمه الأساسية ووجود ثغرة من خلالها تنفذ القيم الوافدة، وتُحدث تناقضاً لا يزال يتنامى ؛ حتى يُغَيِّر صورة المجتمع ؛ ويقطع صلته بقيم الأمة الأولى ؛ التي كان الناس عليها .

وهذا الضعف في تعامل الإنسان مع مكونات قِيمه ؛لا يُمكن الانفكاك منه ؛ ما لم تَقُم المجتمعات بما جاء في الكتاب والسنة من شرائع ؛ تحفظ البنية القِيَمِيَّة من الذوبان أو الانحراف نتيجة تسلل المنتجات القِيمية للحضارات الأخرى.

وهي تلك الخمس الشرائع التي نبهت عنها في جزء الورقة الأول.

ولهذا لا بد من وضع الخطط التي تعتني بإقامة البرامج الرامية إلى شد بنية المجتمع بهذه الشعائر العظيمة .

فترسيخ مفهوم الخيرية لهذه الأمة، والتأكيد على شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالتواصي بالحق والصبر والمرحمة، والتأكيد على عقيدة الولاء والبراء، والنهي عن التشبه بالكافرين ، كلها مواضيع يجب أن تكون حاضرة في خطب المساجد ، وفي كلمات العلماء والدعاة والمربين .

كما يجب أن تكون محور العديد من البرامج الدعوية والاجتماعية ؛ حتى تنجبر قلوب الناس عليها فهمـًا وامتثالا.

إلا أن الواقع الثقافي والإعلامي في المجتمعات الإسلامية اليوم ، أقل ما يوصف به : أنه يُزَهِّد في هذه الشعائر ، وهذا ما أنتج أجيالا تشعر بالخجل من هويتها وتاريخها ، أو تشعر بضعف في الانتماء إليهما . وكلا الأمرين يُلجآنها إلى تعَقُّب الدخيل وعدم التحرج من تقليده، بل والشعور بالسعادة في هذا التقليد ، ومِن ثَمَّ اعتناق القيم المصاحبة لهذا الدخيل .

ولَمَّا كانت هذه الشرائع الخمس هي مقومات الممانعة المجتمعية ؛ فإنها في أجواء الانبهار الثقافي تتعرض لحملة تشويه ،

ومحاولات إسقاط ، ممن أضعفت سطوة القِيَم الغريبة مناعتهم الذاتية ، فرغبُوا في سِرَاية هذا الضعف إلى جميع المجتمع ، مع عدم تسليمهم بوصفه ضعفـاً ، بل يُصورونه على أن اعتناقهم تلك القيم ضرب من ضروب الشجاعة والإقدام ، وأنهم طلائع التغيير في أمتهم .

المفهوم الثالث : سد الذرائع

سد الذرائع دليل شرعي يكاد يكون متفقـًا عليه بين الأئمة ، وهو أحد أرباع الدين كما ذكر ابن القيم(رحمه الله تعالى).

[إعلام الموقعين:(٣ / ١٧١)]

بل إننا حين نتأمل كثيراً من الأوامر والنواهي الشرعية ؛ نجد سد الذرائع أظهر العلل ، التي تُعلل بها تلك الأحكام ، وقد مثل ابن القيم لذلك بتسعة وتسعين مثالاً من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وخلاصة هذا الدليل : تحريم ما أصله الإباحة ؛ إذا تحقق إفضاؤه إلى المفسدة الراجحة . وهذا المعنى رغم الاتفاق عليه بين العلماء ، إلا أن القيام به مرت به فترات من الضعف ، يُدركها المتتبع لتاريخ التشريع الإسلامي ، وتختلف أسبابها من زمن إلى زمن، ومن مكان إلى آخر.

ومنها : ضعف العلماء عن القيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحماية فتاواهم في بعض الأماكن والعصور، وهذا الضعف قد يكون ذاتيـًا أي ناشئـًا عن سجية خَلقية في القائمين على العلم في ذلك العصر، وإما أن يكون ناتجـًا عن عملية مُنَظَّمةٍ لإضعافهم ، ومنها انصراف الحكام عن إقامة الشريعة إلى ما يشغلهم من تقرير الحكم بقتال المنافسين أو اللهو

والترف ، أو شعورهم بالانتفاع السياسي من شيوع البدعة في رعيتهم .

وكلٌ من هذه الأسباب له أمثلته ،التي لا تخفى على من له إلمامٌ بالتاريخ الإسلامي، وكُلها تصب في صالح تقرير فكرة أن الانصراف عن سد الذرائع كان سببًا رئيسًا فيما عانت منه القيم الإسلامية من تدهور ، في العصور المختلفة

فظهور الدولة الأموية أدى إلى انهيار العرف السياسي الذي استقر في عهد الخلفاء الراشدين ، وكان انهياره ذريعة لظهور عدد من القيم الدخيلة ،التي يخدم ظهورها العرف السياسي الجديد ، وإن كان البعض قد يراها موروثة عن المجتمع الجاهلي القريب من حيث النسب والعصر، إلى المجتمعات الإسلامية في العهد الأموي .

والحقيقة أن اعتبار القرب النسبي من المجتمع الجاهلي كمبرر لتَمَثُّل قِيَمِه هو تقريرٌ لمرجعية أخرى لبناء القِيَم في الأمة ؛ التي كوَّنَ الإسلامُ أخلاقها وآدابها ورؤاها وعاداتها وعباداتها وأعرافها ؛ نائيًا بها عن المرجعية الجاهلية .

ومن هذه القِيم الدخيلة التي أنتجها إسقاط العرف السياسي الذي كوَّنته الخلافة الراشدة ، ظهور العصبية القبلية في داخل النسيج العربي للأمة الإسلامية ، وظهور العصبية العرقية ، داخل النسيج العام للأمة.

ومع هذا كانت الدولة والأئمة في العهد الأموي ؛حتى خلافة مروان بن محمد؛ قائمة بمبدأ سد الذرائع ؛فيما يتعلق بمحاربة الابتداع ؛وحفظ والأخلاق والمروءات .

وفي الدولة العباسية ضعف القيام بسد الذرائع من الدولة ؛ في جانب حماية الدين من الابتداع ؛وذلك بعد عهد الرشيد. وإن كان العلماء قد بذلوا الجهود الكبيرة للحماية من البدع ؛حتى وصل الأمر إلى ما عُرف تاريخياً بمسألة المحنة ، لكن ضعف الدولة في هذا الجانب كان له أثره الكبير في إتاحة مناخ مناسب لذيوع البدع ؛ التي ظلت في تنامٍ حتى أصبحت هي الصورة الظاهرة للإسلام.

إلا أن سد الذرائع فيما يتعلق بالأخلاق والآداب بقي قوياً يقوم به العلماء والقضاة والمحتسبون ، الأمر الذي حفظ للأمة عفافها وأخلاقها ، رغم ما حدث من دواع للتحلل ؛تمثلت في شعر المجون؛ وانتشار الجواري ؛ وظهور مذاهب بدعية تؤصل لبعض مظاهر الانحلال الخلقي .

وفي الجملة كان لإهمال دليل سد الذرائع في جانب العقائد والعبادات أثره الكبير ؛ في غلبة البدعة على الدين الصحيح؛ في جانبي العقائد والعبادات ، كما كان لمراعاته أثره الكبير- أيضاً - في حفظ أخلاق الأمة وأعرافها وآدابها.

وهذا التقرير من حيث الجملة ، وإلا فقد أدت غلبة البدعة في الدين إلى ضمور الكثير من الفضائل التي تعتبر العقيدة والعبادة مؤسسا مهما لها .

ولم تبدأ أخلاق الأمة المميزة لها والمعبرة عن روحها بالضمور حقـًا ؛ إلا مع تخلي العلماء عن القيام بسد الذرائع؛ نتيجة أمور عدة ، منها: غلبة التوجهات المنفتحة على الغرب على القرار، وتأثيرها في الفتوى الشرعية في البلاد التي ابتليت بالاحتلال الكافر.

فَسَدُّ الذرائع يقوم على حماية الفرد من نفسه ،والمجتمع من أفراده ، والأمة مما يُحيط بها ، فهو عبارة عن حراسة للأمة بسلطة الحلال والحرام .

والدولة التي تضع قيم الأمة وحمايتها ضمن مسؤولياتها لا بد أن تقف مع أهل العلم في إقرار هذا الدليل ، وأن تراعي هذا الدليل فيما تسُنُّه من أنظمة وقرارات .

المفهوم الرابع : مواكبة مستجدات العصر.

الأمة التي تحمي قِيمها من الانتهاك الحضاري؛ لا بد أن تَضمن أن ممانعتها لن تجعلها في مؤخرة الركب ، فإن للأمم عقلاً جمعيًا هو المسؤول عن إيقاض الطموح وإذكاء روح المنافسة بين أمم الأرض ، وحين تقتنع أمة من الأمم أن موروثها أو جزءً منه يقعُدُ بها في ميدان السباق ؛ فإنها تلقيه عن كاهلها تخفُفَـًا ،حتى تكون في المقدمة ، أو في أقل تقدير أن تنافس على المقدمة .

كذلك فعلت أمم الغرب ؛ حين ألقت بكل ما ورثته عن القرون الوسطى ؛ وما قبلها من قِيَمٍ ؛ كانت تحكم حياتها وعقولها ، وذلك في زمن إذا ما قِيس بتاريخ الحضارات عُدَّ وجيزا.

فقد أدركت تلك الأمم ؛ أنَّ ماهم عليه ؛ هو الثَقل الذي يُعيق حركتهم ؛ عن بلوغ ما تراه أعينهم ؛ من تقدم أُمَمٍ أخرى متجردةٍ عن إرثهم ؛ أوعمَّا يُشبهه . فلم يكن منها إلاَّ أن نزعت نفسها من حباله ؛ وانطلقت دون التفاتٍ إليه ؛ في هيئةِ مَن يتحاشى النظر إلى ماضيه ؛ خوفـًا من أن يأسف عليه .

وقد تكون الأمم مُحِقَّة في نظرتها لِقِيَمِهَا ؛ كما هو حال أمم أوربا ؛ التي صدقت مع نفسها ؛ حين عدَّت موروثها القيمي حائلا دون تقدمها .

وقد تكون مًخطئة في هذه النظرة ، التي لن يكون حاملاً

عليها ، إلا الشعور بالهزيمة ، والعجز عن التفكير التحليلي في أسبابها ، فلا تجد إلا الانكسار أمام الغالب بكل ما يحمله ، معتبرة كلَّ شيء في هذا المنتصر؛ سببً من أسباب تقدمه.

ويُمَثِّل ذلك أكثر الأمم التي تعرضت لصراع حضاري مع غيرها ،والتي استقى منها ابن خلدون نظريته في أن المغلوب مولع بتقليد الغالب .

لهذا كانت دراسة أسباب ضعف الأمة من لدن مفكريها ، دراسة مستوعبة ، وتقديمُ نتائجِ الدراسات للناس ، بكل الطرق التي تكفل وعياً عاما بالأسباب الصحيحة للضعف أمراً واجباً ، ينبغي أن يكون في أوليات البرامج المُعدَّة للنهوض بأي أمة من الأمم.

وحين يرسخُ في ضمير الأمة براءةُ قِيَمِها من أسباب تخلفها ؛ تعودُ إليها سَجِيَّتُها في محبة تراثها ؛ والحرص على حراسته.

وحين نطلب من المجتمع أن يُمَانع على قِيَمِه ؛ لا بد لنا من تقديم ما يضمنُ له أنها لن تقف حائلاً دون وصوله إلى ما يصبو إليه ، من التفوق على الأمم الأخرى ، أو في أقل تقدير ما يجعله نداً لها.

وعلى هذا - والله أعلم - جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، والتي تُبَشِّر أبناء الأُمَّة المسلمة بالغلبة والتفوق

على سواهم من الأمم ؛ شريطة الاستمساك بما أوحى اللهُ عز وجل به إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] ، فالاستخلاف في الأرض والتمكين فيها ، والأمن بعد الخوف ، هي ثمار الاستمساك بِقِيَم الإسلام ، التي جمعتها الآية في : الإيمان وعمل الصالحات، وإخلاص العبودية لله تعالى .

وفي الحديث الذي رواه أبو داود وغير سنن أبي داود ، عن بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:« **إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ؛ سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه ؛ حتى ترجعوا إلى دينكم.» قال أبو داود الإخبار لجعفر وهذا لفظه .**

[سنن أبي داود: (٣ / ٢٧٤)]

فالحديث يؤكد على أن مراجعة الدين هي المخرج من حالة الذل ، التي أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها ستصيب المسلمين .

مثل هذه الآية وهذا الحديث يبعثان على الثقة في القيم ،التي كان الإسلام مُكَوِّنَـًا رئيسـًا لها ، ويؤكدان على أن تلك القيم لم تكن شريكة فيما حصل للأمة من ضعف أو استضعاف .

ومع كل هذا يبقى للحضارة المستجدة ؛التي بُنِيَت على قيم أخرى منتجاتها المُغرية ، والتي أدت هيمنة أصحابها إلى تغلغلها في حياة الأمم الأخرى . ولمَّا كانت نشأة تلك المُنتجات بين ظهرانيهم ، فإنهم في الغالب يكونون الأسبق إلى تكييفها وفق ما يتواءم مع قِيَمِهِم ، ولا يَكون انتشارها بين الأمم الأخرى إلا بعد أن غلب تصورهم على استعمالها، فلم تعد منتجـًا وحسب ، بل أصبحت وعاء ممتلئـًا بمفاهيم مُنتِجِه وَرُؤاه وأعرافِه وتقاليدِه.

ولعل أبرز ما يصلح أن نستنطق منه مثالا تتضح به غاية الحديث: وسائط الإعلام بجميع أنواعها وحسب تسلسلها التأريخي بدءاً بالطباعة وانتهاءً بالهاتف المحمول بجميع استخداماته .

فقد وُلِدت في محضن علمي غربي ، ومع أن الناتج العلمي ليس حِكراً على حضارة دون أخرى ، إلا أن استخدامه الأول في بلاد منشئه يجعله مُحَمَّلاً بعبء المصدر من ثقافةٍ وأخلاق .

وليس دفع هذا المُنتَج عنَّا بالفكرة الصائبة ، بل ليس بالفكرة التي يَتصور أحدٌ أن تختمر في ذهن عاقل .

لكن إقناع المجتمع بالفرق بين المُنتج وما يحمله، قد يأخذ وقتـًا أطول ، ليس من الناحية النظرية، فالتفريق النظري هَيِّنٌ ، وقد كَان ، ولم يُفَرِّط في شرحه أحدٌ من العلماء، أو أهلِ الفكرِ والمعرفة ، بل الوقتُ الأطول والصعوبة في الإقناع: إنما هي بالقدرة العملية على التفريق بين الأمرين .

وما لم يُفرق المجتمع عَمَلِيَـًا بين المُنتَج الحضاري ، وحمولته الثقافية ، فإننا لن نستطيع المحافظة على ممانعة المجتمع ضد هذه الحُمولة ، التي هي الخطر الحقيقي وليس المنتج.

ولنُخصص المثال بالصور المتحركة ، إذ نشأت في الغرب ، وتعلق بها عندهم فَنُ الدراما ، فالأُولَى مثالٌ للمُنتَج الحضاري العلمي الصالح لجميع الأمم، باعتبار العلم الذي جاء به ليس وقفـًا على أمة بعينها ، بل هو مِلكٌ إنساني لم يصل الغرب لمرحلته دون مشاركة البشرية بأجمعها في بنائه عبر التاريخ، وإن أدَّى قفزته الأخيرة والكبرى في زمانهم.

أما الأخرى -فَنُّ الدراما- فهي من الحمولة الثقافية الخاصة بالغرب ، لا تُعرف إلا في تاريخه ، ولا تَصلح بهيئتها الظاهرة إلا ضمن منظومة قِيَمه ، وقد انتقل المُنتَجُ العلميُ إلينا، والدراما في صورتها الحاضرة متعلقة به، لا ينفك عنها ولا تنفك عنه ،

فالاجتهاد على الفصل العملي في ذِهنية المجتمعِ بين الأمرين مطلبٌ لقبول المُنتَج جملة ، ورفض المحتوى تفصيلا.

ومعنى رفضنا للدراما تفصيلا لا جملة : شعورنا ، بل جزمنا، بأنها تسربت إلى واقعنا، حتى أصبحت تأخذ حيزاً من وقته وعقله ، جعل لها قدرة على التغيير في نمط حياته وتوجهه الفكري ، بل وأثرت على علاقاته ببعضه ،وعلى لغته التي هي وعاء تفكيره .

وهذا الجزم يمنعنا من ردها جملة ؛ لأن ردها جملة يعني أننا سنُخَيِّر المجتمع بين فراغ يتركه نزعها منه ، أو قل نزعه منها، وبين أن يقف المجتمع مُصادماً لنا ، رافضاً لما نطلبه منه.

فالخيار الأول ليس في مقدور المجتمع بكليته ، وإن كان بمقدور طوائف منه ، ومن لم يستطع الخيار الأول- وهم الأكثر غالباً - فسوف يجنحون تلقائياً وبشكل حتمي إلى الخيار الثاني .

وليس من المفترض أن نغتر بطول فترة الجنوح، ونظن ذلك استسلاما من المجتمع لما يُراد انتزاعه منه ، فإن بطء الحركة نحو الصدام الفكري في المجتمعات أمر معهود ، وطالما اغتر به كثير من الساسة والمصلحين .

إذا ليس لنا إلا القبول تفصيلاً ، وإن شئت فقل: الرد تفصيلاً ، وهو يعني تمييز هذه الدراما ، ومعرفة ما لا يُناقض قيمنا من صُنُوفِها حالاً أو مآلا ، وما يناقضها حالاً أو مآلاً.

وليس الأمر أن نقبل الأول ونرد الآخر ،كما يحلو للكثيرين أن يقولوا، بل الأمر أن نصنع الأول ونرفض ما عداه، فإن صناعتنا له أدق معنى من قبولنا له ؛ لأنها تعني استخراج مادته من تلقاء أنفسنا وليس مجرد قبولها من غيرنا .

ولو كان غرض الحديث هو الدراما ،لكان لي تفصيل أكثر وضوحاً ، لكنها جاءت مثالاً ينادي على نفسه لحاجة المجتمع - في تهيئته للممانعة -إلى بديلٍ لثمار المنتجات الحضارية الوافدة ، والتي توغلت بفعل الهيمنة الحضارية الغربية في مجتمعاتنا.

خاتمة:

في عصر تُفرض العولمة فيه على الشعوب والحكومات ، عبر كل شئ تراه عينك ، أو تحسه يداك ،أو تسمعه أذناك ، لم يعد للمجتمعات المسلمة أن تقتصر في الحفاظ على هويتها على دولة تمنع أو نظام يقنن ، بل عليها أن تعتمد بعد الله سبحانه وتعالى ، على مناعتها الذاتية ضد الأمراض والأوبئة ، وعلى قدرتها الفطرية على التجمع حول ذاتها حين الشعور بالخطر.

وكان هذا ما سميته الممانعة المجتمعية ، وكتبت هذه الورقة القصيرة كنواة لمشروع مجتمعي يخدم فكرة أن تكون الأمة هي الحارسة الأولى على ما آتاها الله سبحانه وتعالى من أمانة الدين

وتكاليفه ، وقد كونت فيه سائر قِيَمِه الصحيحة التي لا بقاء حقيقي له إلا بها.

هذه الورقة هي بمثابة المشروع الأول للمصل الذي يحقن به الجسم ؛ كي يدفع عن نفسه مُتَسلِّل الأوبئة ودقيق الجرائيم والمكروبات.

أسأل الله تعالى أن يجعله عملاً مقبولاً عنده سبحانه وتعالى ومحلاً للقبول عند قارئه، ويكتب النفع به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الثالث

وسائل الممانعة المجتمعية

حين نقول : إن الحفاظ على العقائد والعبادات والأخلاق واللغة والآداب والتاريخ هى مسؤولية المجتمع بالدرجة الأولى ، وأن كل الانحرافات الدينية والأخلاقية وانقطاع الأمم عن جذورها التاريخية والقِيَمِيَّة كان بسبب تفريط المجتمع في مسؤولية الممانعة ، حين نقول ذلك فإننا نُحَمِّل العلماء وقادة الفكر في الأمة الإسلامية تقصيرهم في رسم ما يجب على المجتمع فعله من أجل إنجاح هذه الممانعة والخروج بها عن شكلها التلقائى الفطري إلى شكل عملى واضح المعالم مبنى على أسس علمية .

فلا شك عندي أن الممانعة المقتصرة على الشكل التلقائى الفطري يمكن هزيمتها بسرعة متناهية كما حصل في القرون القريبة من عهد النبوة فيما يتعلق بالممانعة الدينية والسياسية والأخلاقية والتاريخية واللغوية ، فقد كانت الممانعة في المجتمع قاصرة إلى حد كبير على شكلها التلقائى الذي ركَّبه الله تعالى في طبائع الناس من الاشمئزاز من المنكر والتخوف من التحولات أيـًا كانت ، وكان العلماء يقومون بواجبهم الأساس من حيث بيان المنكر والانحرافات والتحذير منها . والانتصاب للناس على شكل قدوات صالحة ، لا نكاد نرى لها نظيراً في صلاحها وخيريَّتِها في تاريخ البشرية جمعاء .ولم يُقصِّروا في ترغيب الناس بالتَّدَيُّنِ وتحذيرهم من المعاصي وحثهم على طلب العلم . لكن

من يَطالع كُتبَ الإخباريين والأدباء والتى يُمكنُ أن تكون مصدراً من مصادر التأريخ للأخلاق في كثير من المجتمعات المسلمة يجد أنها تحكى انحرافاً مبكَّراً غشِىَ الأمة عن نهجها الصحيح في شرائع أخلاقها ، وأنَّ أثرَ العلماء كان قاصراً في الجانب الذي قدَّمتُه لاسيما في العواصم العلمية التى يتواجد في كلٍّ منها أعدادُ كبيرة من أئمة العلم ، ولا يعنى هذا كونهم قصَّروا في أداء رسالتهم في العلم والوعظ ، كلاَّ ، ولكنهم لم يُسْهَمُوا في تربية المجتمعات على أداء دورها المطلوب في حفظ نفسها من العقائد والأخلاق المنحرفة حتى لم يكد القرن الرابع الهجري يبدأ ، إلا والأمة مصابة بشكل كبير جداً في كل ذلك.

أما في القرن الخامس فقد غلبت على الناس البدعة والانحرافات العقدية والسلوكية فضلاً عن الانهيار السياسى ، حتى تمكن الصليبيون من الدخول إلى ديار المسلمين وانتزاع آسيا الصغرى من حكم المسلمين السلاجقة ، ثم الاستيلاء على كامل الساحل الشامى بدءًا من أنطاكية حتى الرملة في فلسطين ، وإنشاء إمارة الرها في العراق ، وأخذ الإتاوات من كثير من أمراء الشام الذين لم ير الصليبيون حاجة إلى الاستيلاء على مدنهم ، ثم ختْمُ المصيبة باحتلال القدس وما يحيط به من مدن وقرى ، كل ذلك في عام واحد وهو عام ٤٩٢هـ وحين تقرأ تاريخ تلك الحروب تُصاب بصدمة كبيرة جداً حيث إن جيوش الصليبيين المغتربة ، البعيدة كثيراً عن أوطانها،

المنهكة من السير والقتال في أوربا وآسيا الصغرى ، والتى تفتقر إلى المهارة في فنون القتال ، لم تجد بعد تجاوزها أنطاكيا مقاومة تُذكر ، لا أقول مقاومة من جيوش الإمارات الإسلامية الممزقة في الشام والعراق ، بل حتى من الشعوب المسلمة وقياداتها العلمية الدينية، فقد واجهت هذه الجيوش الغازية ما يشبه أن يكون استكانة واستسلامـًا لما يحدث .[تاريخ الحروب الصليبية، راغب سرجاني].

ولم يكن ذلك ليكون لولا حجم الانحراف الدينى والأخلاقى الذي كان مسيطراً على المجتمع ، وفي ظنى : أن الظهور المبكر لبعض العقائد الباطلة في القدر كان له أثر كبير في تسريع تمكن الأدواء العقدية والأخلاقية سريعـًا في هذه الأمة .

فقد ظهرت عقيدتا الإرجاء وإنكار القدر في زمن مبكر جداً من تاريخ الأمة وفي حياة الصحابة وظهر لها قبول بين بعض الرعاع والدهماء ، ثم ظهرت عقيدة الجبر في بداية القرن الهجري الثاني وكان لها هى الأخرى قبول أيضا ، لكن الأثر الأكبر في المرحلة الأولى كان لتبنى نفر من كبار رجالات المسلمين من مثل قامة حماد بن سلمة وأبى حنيفة رحمهما الله تعالى لجانب من عقيدة الإرجاء ، والذي كان يسمى إرجاء الفقهاء ، وهو القول بأن الإيمان إقرار وتصديق وأن العمل غير داخل فيه .

[الفقه الأكبر، ص: ٣٠٤].

قال ابن تيمية مبيناً خطورة هذا النوع من الإرجاء بقوله :(ولهذا دخل في إرجاء الفقهاء جماعة هم عند الأمة أهل علم ودين، ولهذا لم يكفر أحد من السلف أحدا من «مرجئة الفقهاء» بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال، لا من بدع العقائد؛ فإن كثيرا من النزاع فيها لفظى، لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب. فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله، لاسيما وقد صار ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام من أهل الإرجاء وغيرهم، وإلى ظهور الفسق، فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سببا لخطأ عظيم في العقائد والأعمال، فلهذا عظم القول في ذم الإرجاء حتى قال إبراهيم النخعى: «لفتنتهم يعنى المرجئة أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة» وذكر آثارا في ذم المرجئة) . [مجموع الفتاوى :(٧/ ٣٩٤)].

وبعد ذلك تطور الأمر في أثناء خلافة بنى العباس ليعود الإرجاء إلى أسوأ من ذلك على يد الماتريدية والأشاعرة الذين قالوا بأن الإيمان مجرد التصديق ، وكان من لوازم ذلك ما قاله شيخ الإسلام بن تيمية : (فهؤلاء القائلون بقول جهم، والصالحى قد صرحوا بأن سب الله ورسوله، والتكلم بالتثليث، وكل كلمة من كلام الكفر ليس هو كفرا في الباطن، ولكنه دليل في الظاهر على الكفر، ويجوز مع هذا أن يكون هذا الساب الشاتم في

الباطن عارفا بالله، موحدا له، مؤمنا به. فإذا أقيمت عليهم حجة بنص أو إجماع أن هذا كافرا باطنا وظاهرا. قالوا: هذا يقتضى أن ذلك مستلزم للتكذيب الباطن، وأن الإيمان عدم ذلك) .

[الفتاوى : (٧/ ٥٥٧)].

وبهذا يظهر أن للأشعرية والماتريدية التى كانت شائعة ذلك الوقت عند علماء الشافعية ، أثرٌ كبير في هذا الانحراف وذلك الانهزام .

وشيوع هذه العقيدة بين العلماء كان له أسباب سياسية وتاريخية ، أما نزولُ أثرها السيئ على المجتمعات فكان نتاج ضعف الممانعة المجتمعية بكل تأكيد .

فهذه العقيدة تتضمن بابين مهمين من أبواب الانحراف ، الأولُ أثَّر بشكل سيء على علاقة الإنسان بربه وتوسع الناس بفعل تأثيره في البدع الشركية ، والآخر أثَّر على اعتقاد الناس في القضاء والقدر فاستكانوا لما يحل بهم من انحرافات سلوكية وأخلاقية ، ثم استكانوا لما يحل بهم من غزو وقتل وانتهاك حرمات .

وأول هذين البابين : تهاون الفكر الأشعري بتوحيد الألوهية حتى إنك لا تكاد ترى له ذِكراً في مؤلفاتهم العقدية ، بل ذهبوا فيه إلى أبعد من ذلك حين عرَّفوا الإله بأنه الصانع أو المخترع كما في

قول عبد القادر البغدادي:(واختلف أصحابنا في معنى الإله: فمنهم من قال إنه مشتق من الإلهية، وهى: قدرته على اختراع الأعيان، وهو اختيار أبي الحسن الأشعري)

[أصول الدين ،ص: ١٢٣ ، لعبد القادر البغدادي].

وأعرضوا عن تعريفه الحق بأنه المستحق للعبادة وحده ، وهو مقتضى دلالة النصوص القرآنية الكثيرة التى قرنت وصف الألوهية لله عز وجل بوصف الوحدانية والتفرد باستحقاق العبادة والنهى عن الإشراك به سبحانه ، من أمثال قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[البقرة: ١٦٣] . وقوله تعالى : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾[النحل : ٢٢] . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فصلت : ٦] .

وبسبب هذا الخطأ الجسيم ، وأيضا بسبب ما قدمت ذكره من بدعة الإرجاء الجهمية عندهم ، حصل التهاون في عدد من البدع المتعلقة بإخلاص العبودية لله عز وجل ، وكان من أقدمها حدوثـًا واشتهاراً : القسم بغير الله تعالى حيث نجد ذلك كثيراً في كلام الشعراء في العهد العباسي الأول ، وأيضا في كثير من قصص

المسامرة التى تحكى بمجموعها حياة ذلك العصر وإن لم تصح أسانيد آحادها .

ثم تكاثرت البدع المتعلقة بالعبادة حتى وصل الأمر إلى دعاء أهل القبور والاستغاثة بهم من دون الله سبحانه وتعالى .

ولما كانت العقيدة الأشعرية وأختها الماتريدية قد تمكنت في العالم الإسلامى لعوامل كثيرة ليس من أقلها العامل السياسى ، لم تجد تلك المنكرات العقدية رادعـًا قويـًا من أهل العلم ولا من المجتمع .

وزاد من المصيبة دخول العلماء الأشعرية في التصوف ، وقد جاء في كتاب بيان كذب المفتري المنسوب لابن عساكر أسماء عدد كبير من أعلام التصوف منتسبين إلى المذهب الأشعري فاجتمعت بدعتهم في التقليل من شأن توحيد العبادة إلى بدعة التصوف فسرَّعَت في تقديري في تطبيع البدع بجميع أنواعها ، المُكَفِّرَة وغير المُكَفِّرة ، بين المنتسبين إلى السنة والجماعة ، حتى أصبح الانتساب إلى السنة في جانب الاعتقاد يكاد يكون في الغالب الأعم صوريـًا لا حقيقيـًا ، وربما نقول : إن اتباع السنة أصبح منحصراً في بعض الجوانب الفقهية غير المتعلقة بالعقائد ، كأحكام العبادات الثابتة والمعاملات والأنكحة ، أما الابتداع وهو استحداث عبادات غير مشروعة فقد أصبحت سوقه رائجة

بشكل يكاد يكون مذهلاً ، بل أصبحت الكثير من البدع أعز في نفوس أصحابها من السنن ، وهذا ما تُمْكِنُ معرفته بالاطلاع ولو قليلاً على بعض الكتب التى تخصصت في التحذير من البدع من أمثال كتاب أبى بكر الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠ رحمه الله تعالى في كتابه «الحوادث والبدع»، وهو كتاب خصه مؤلفه بالبدع التى أصبحت لعظيم الابتلاء بها تُظن من الواجبات أو السنن ، كما نص على ذلك ، ومع هذا فاستمع إليه يقول عنها : (اعلم أن ما حدث في سائر أقطار بلاد الإسلام من هذه المنكرات والبدع لا مطمع لأحد في حصرها لأنها خطأ وباطل والخطأ لا تنحصر سبله ولا تتحصل طرقه) [الحوادث والبدع ، ص: ٢٢].

وأيضا من أمثال الشاطبى المتوفي سنة ٧٩٠ في كتابه «الاعتصام» ، والذي يقول في مقدمته :(فلما أردت الاستقامة على الطريق وجدت نفسي غريبا في جمهور أهل الوقت ، لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد ، ودخلت على سننها الأصلية شوائب من المحدثات الزوائد) [الاعتصام :(١/ ١٥)] .

أما الباب الآخر من أبواب المعتقد الأشعري والتى كانت سببًا مهمًا في ضعف الأمة واستكانتها ، فهو مذهب الأشاعرة في القضاء والقدر ، فهو وإن سُمِيَ بمذهب الكسب إلا أن محصلته أو لوازمه مفضية إلى الجبر .

وقد اختلفت عبارات الأشاعرة في التعبير عن هذه النظرية لكنها كلها لا تخرج عن القول بأن ليس تأثير في فعله سوى كونه محلاً له ، يقول الجرجاني : (أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله سبحانه و تعالى وحدها و ليس في قدرتهم تأثير فيها بل الله سبحانه، أجرى عادته بأن يوجد في العبد قدرة و اختيارا، فإذا لم يكن هناك مانع أوجد فيه فعله المقدور مقارنا لهما، فيكون فعل العبد مخلوقا لله إبداعا و إحداثا، و مكسوبا للعبد) .

[شرح المواقف :(٨/ ١٤٦)].

نعم قد اجتهد كثير من علماء الأشاعرة في الذب عن مذهبهم ونفى استلزامه للجبر ، لكن ظلت محاولاتهم هذه نظرية لا محل لها عند التطبيق العملى على أفهام الناس وواقعهم ، وقد قال الشعراني ـ و هو من مُنَظِّري التصوف في القرن العاشر ـ:«كان أبوالحسن الأشعري يقول: ليس للقدرة الحادثة أثر، و إنّما تعلّقها بالمقدور مثل تعلّق العلم بالمعلوم في عدم التأثير، و قد اعترض عليه بأنّ القدرة الحادثة إذا لم يكن لها أثر فوجودها و عدمها سواء، فإنّ القدرة لا يقع بها المقدور، بمثابة العجز، و لقوةّ هذا الاعتراض لجأ أصحاب الأشعري الى القول بالجبر)

والذي ذكره الشعراني يفيدنا في بيان أن الجبر هو ما فهمه عامة الناس وفقهاؤهم ووعاظهم رغم محاولات علماء الأشاعرة

نفى الجبر عن معتقدهم وما فهمه الناس هو صاحب الأثر على سلوكهم لا غير .

ولا تسألنى عن التناقض في الجمع بين عقيدتي الجبر والإرجاء ، فالبدعة مقضية للتناقض لا محالة .

ولما كان التصوف قد غلب على العلماء ومعظمهم من الأشاعرة والماتريدية ، فقد اختلط جبرية الأشاعرة بالتصوف فتضخم أثرها بشكل كبير جداً ، حتى وصلت في المجتمعات الإسلامية إلى انتشار مظاهر التواكل والدروشة والقعود عن معظم المكرمات ، ومن أهمها التواصى بالحق والتواصي بالصبر ، الأمر الذي مكن لأهل الفسوق وأهل الأهواء والأدواء فأصبح مظهرهم هو الغالب والسائد في المجتمعات المسلمة .

المُحصِّلة : أن المجتمعات المسلمة ظلت قرونا نتيجةً لما ذكرنا ولعوامل أُخرى لن يسع المقام لتفصيلها عديمة القدرة على حماية نفسها من أي تغيير سلبى يُراد بها ، ودخل ما يُسَمِّى بالاستعمار الحديث ، ولم تكن المفاجأة في دخوله السريع في الغالبية الساحقة من بلدان المسلمين ، فالمسلمون قد أُشبعوا بعقيدة الجبر الصوفية الأشعرية ، لكن المفاجأة الحقة هى في الانهيار السريع في كثير من القِيَم الإسلامية لاسيما تلك التى لها تعلق بصورة المجتمع ومظهره ، والتي لها تعلق بثقافته وانتمائه

الحضاري ، والسبب الأهم في نظري هو **غياب المجتمع كسور قوي يقف حامياً لقيم الأمة وتاريخها وأخلاقها .**

هذه التجربة التاريخية الأليمة والتى استمرت قرابة ألف ومائتى عام من ضعف المجتمع في جانب الممانعة تقتضى من العلماء و المفكرين والباحثين إجراء التدابير العلمية والعملية التى ترفع من جاهزية المجتمع لمواجهة الغزوات الثقافية والعقدية والقِيَمِيّة والتى تتزايد ضراوة مع مرور الأيام لاسيما في بلادنا المملكة العربية السعودية .

الوسائل المقترحة :

أولا: العناية بعقيدة الإسلام كما جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما فهمها عنه سلفنا الصالح رضى الله عنهم من الصحابة والتابعين ، والعناية بفهم كتاب الله تعالى على منهج سلف الأمة في فهم النصوص ، وذلك من جهة المبالغة في تعليمهما للناشئة والسعى إلى ملء الصدور بهما ، والسعى لجعل القيام بها والحفاظ عليهما غايةً أولى من غايات الفرد والأسرة قبل أن تكون هدفاً أو مشروعاً للدولة ومؤسساتها الرسمية .

فالعقيدة الصحيحة أكبر داعم للمجتمع في ممانعته ، وقد ظهر لنا مما تقدم كيف كان الانحراف العقدي في جانب توحيد العبادة والقضاء والقدر عاملاً مهما من عوامل انحراف المجتمع

دينياً وأخلاقياً ، بل من عوامل انهياره عسكرياً وسياسياً ، ولعل ذلك من حِكَم ربنا عز وجل في العناية القرآنية العظيمة بالترسيخ العقدي للأمة ، كما أن الانحراف العقدي لم يكن ليكون في الأمة لولا انحرافها عن منهج السلف رحمهم الله تعالى في فهم النص القرآني ، وقد ابتدأ ذلك باتباع المتشابه من القرآن وعدم رد متشابهه إلى محكمه فنشأ الانحراف عن العقيدة الصحيحة في القضاء والقدر ونشأ مذهبا الجبر والإرجاء ، ونشأ جراء ذلك أيضا: الانحرافُ السياسي الديني فنشأت الخوارج والشيعة .

ثم تطور الأمر إلى تحكيم العقول في النصوص فنشأ الانحراف العقدي في الأسماء والصفات ، ثم الانحراف الأصولى في تأويل النصوص القرآنية والسنة النبوية المتواترة ورد السنة النبوية الآحادية.

ثم وصل الأمر إلى تحكيم أهواء الشبهات وأهواء الشهوات في النصوص فظهر مالا يحصى من الفرق الإسلامية.

ثم زاد الزيغ في اطراح الكتاب والسنة كليهما وعدم اعتبارهما على الحقيقة وإن كان في الظاهر يزعم رعايتهما ، فظهرت الفرق الباطنية المنتسبة للإسلام وليست منه وظهرت الفلسفة والإلحاد .

ولا شك عندي مطلقاً في أن ظهور الدعوة التجديدية

السلفية التيمية أواخر القرن السابع وأوائل الثامن والدعوة التجديدية السلفية الوهابية ، كان لهما أثر بالغ في إحياء منهج السلف في المعتقد وفي فهم النصوص ، وبالتالى كان لهما أثر كبير في عود المجتمعات المسلمة في عصرنا الحديث إلى طاقة الممانعة ، حيث كانت سببا أولاً في إذكاء جميع الدعوات المناهضة للاحتلال الصليبى الذي طبّق معظم أقطارها ، وكان لها أثر أيضا في مراجعة تلك المجتمعات كثيراً مما فقدته جراء انكسارها الثقافي والأخلاقي أمام غلبة المحتل .

ثانيًا : نبذ الفقه المستضعف ، وأعنى به ذلك الفقه الذي يصر أصحابه على أن الواقع هو الذي يفرض الأحكام الفقهية وليس الفقه الإسلامى هو العامل في تشكيل الواقع ، وربما كانت بداية هذه النزعة على يد الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣للهجرة ، وبعد أن آل الأمر إليه في إفتاء الديار المصرية ورئاسة القضاء إبان الاحتلال البريطاني لمصر ، بدأت فتاواه تميل إلى موائمة الواقع والتكيف معه ، مع أنه واقع ينبغى أن يكون استثنائيا ولا يلجأ المفتى إلى ليِّ الفتاوى من أجله إلا بذريعة الضرورة أو الحاجة الماسة التى تُنَزَّل منزلتها ، لكن هذا الفقيه اعتبر واقع الاحتلال وما يفرضه من ثقافة ومظاهر اجتماعية واقتصادية أصلاً وإن خالف الأدلة الصحيحة الصريحة .

فكان ممن قلل من شأن الولاء والبراء وأباح التعامل بالربا المصرفي وأجاز التزيى بأزياء غير المسلمين من المحتلين الأعداء ودعم ما يسمى تحرير المرأة وحاكمية الأمة وكان له العديد مما يسمى بالإصلاحات التى أعجبت السلطة المحتلة على القضاء الشرعى في مصر ، وقد تطورت هذه المدرسة بعده بشكل كبير حتى إن فتاواه أصبحت تقليدية جداً وربما قِيل إنها تمثل المدرسة العتيقة ، وقد استخدم الجيل الجديد من هؤلاء المفتين التأصيل المقاصدي ليستغنوا به عن النص ، أو ليردوا به على من يحاججهم بالنص .

وهذا المنهج في الفتوى يقتل الممانعة المجتمعية إذ إنه يُسَوِغ المخالفات القيمية والأخلاقية للشريعة بتسويغ يظهر للناس وكأنه شرعى فيكسر الحاجز الذي بين الناس وبين المخالفة للشريعة ، ومن هنا يبدأ التوسع في المحرمات باعتبارها أمراً مشروعـاً ، ويهون بين الناس أمر الحرام ، بل يصبح كل عالم يُذَكِّرُ بالمحرمات متشدداً أو متزمتا ، وكل من يستهين بالحرام مجدد متفتح .

ثالثـًا : إعلاء شأن العلماء وحصر الإفتاء فيهم ، ولن يتأتى ذلك إلا بأمور منها : إعلاء العلماء أولاً من شأن أنفسهم ، وذلك بالعودة الحقة إلى صورة القدوة في القول والعمل والبذل ،

والاتصاف بصفات الأبرار من القناعة من الدنيا وصيانة النفس عن الابتذال عند الكبراء من أهل المال والوجاهات والسلطان ، وصيانة اللسان من الوقوع في الآخرين سيما أهل العلم الذين في إسقاطهم وابتذال أعراضهم إسقاط للقيادات الفكرية للمجتمع وباب لاتخاذ الرؤوس الجهال الذين أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عنهم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (**إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**).

ومما يحقق إعلاء شأن العلماء : تربية الأمة على معرفة فضلهم والغيرة عليهم من الذم والسب والثلب ، فإن الأمة حين لا تعرف فضل العلماء ولا تنزلهم محلهم من التوقير والطاعة فيما يخبرون به من أمر الله تعالى ونهية وما استنبطوه من أحكام فيما لا نص فيه ، حين لا تتحقق لهم ذلك ، فإن مكانتهم - أي العلماء- سوف تكون ضعيفة عند أهل السلطان ، الأمر الذي لا يجعل للسلطان رادعاً إن اجتاحته شهوة الاستبداد أو أنزلته السياسة ومراعاة استبقاء السلطان على مخالفة أمر الشارع ، فخير من يُسدد أمره ويمنعه من الاستجابة لمثل هذه النوازع هم أهل

العلم ولن يكون هؤلاء العلماء قادرين على فعل شيء ما لم يكن مكانهم بين الناس معلوما ثُقله وأثرهم في الناس لا يخفى فعله .

وليس السلاطين فقط من تنفعهم مكانة العلماء بين الناس ، بل كلُ ذي أثر مَخشِى على العقائد والأمن والأخلاق كدعاة الفتن والبغى بغير الحق إنما يستكنون في جحورهم حال قوة أهل العلم وظهور مكانهم بين الناس ، ومثلهم أهل الفلسفة والفجور والابتداع في الدين ، إنما يضعف شأنهم وتخبو نارهم في حال علو شأن العلماء وظهور طاعتهم .

وأيضا مما يحقق مكانة العلماء ظهور قوتهم في العلم الشرعى ، فإن من المشكلات التى تواجه العلم الشرعى اليوم قلة حَمَلَتِه على الحقيقة ، أما حملته على التوهم فكثير جداً في هذا العصر ، ولو حاولنا تطبيق شروط التلقب بالعالم قبل خمسين عامًا على ما نحن فيه اليوم لما صفى لنا سوى العدد اليسير ، وهذا الأمر هو أحد أسباب ما نراه اليوم من ضعف الانقياد لأهل العلم وهو ضعف قناعة الناس بمستواهم العلمى ، ولا يُقال : إن الناس لا يمتلكون القدرة على تقييم العلماء ، فإنه وإن كان ذلك من حيث الجملة قد يكون صحيحا ، فهو من حيث التفصيل غير صحيح ، إذ ضعف العالم كثيراً ما يبدو للمستمع إليه وإن لم يكن من أهل فنه ، وقد قال الشاعر :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

والمجتمعات المسلمة بحاجة إلى قيادة العلماء ، ولن تكون هذه القيادة موصلة إلى ما يرومه العقلاء ما لم تكن المُقَدّمون لعلمهم علماء على الحقيقة ، وحالة الفقر في أعداد العلماء على الحقيقة التى تعيشها الأمة مؤذنة بقرب عهدٍ يترأس فيه أنصاف العلماء ، وأنصاف العلماء قد يغنون في حال استتباب الأمور ولينها لكنهم حال الأزمات كلا علماء ، بل أقول لعل هذا العهد قد أظلنا حقـًا ، ولا ننتظر بعده إلا عهد الرؤوس الجهال ، وإلى الله المشتكى .

والمخرج من هذا المضيق لا يكون إلا بالسعى الجاد من قِبَل أهل العلم وأهل الدولة وأهل الفضل في وضع خطة لإحياء علوم الإسلام واستنبات العلماء.

وقد مرت أمتنا بحالة تقترب من حال عصرنا ولا تشابهها من حيث الفقر في أعداد العلماء ، فقام بعض الحكام كالوزير نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥بإنشاء المدارس النظامية المنسوبة إليه ونشطت بسببها حركة العلوم الشرعية في وقته ولم يعبها سوى تعصبه فيها للأشعرية وجعلها شرطـًا في من يُدَرِّس فيها .

والخليفة المستنصر العباسى الذي أنشأ المدرسة المنسوبة إليه سنة ٦٢٥ وكان لها أثر في إحياء المذاهب الأربعة في بغداد .

وأنشأ الشيخ يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزي المدرسة الجوزية بدمشق سنة ٦٣٠ للهجرة وساهمت هذه المدرسة في إحياء مذهب الحنابلة بدمشق وإحياء عقيدة السلف .

وأنشأ نور الدين محمود زنكى المتوفي سنة ٥٦٩ عدداً من المدارس في دمشق وحلب ساهمت في إحياء العلوم وإنجاب العلماء ، كما كان لها الدور البارز في صد حملة التشييع التى عمل عليها البويهيون والفاطميون من قبله .

ويمكن في ذلك مراجعة كتاب الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر النعيمى ، من منشورات دار الكتب العلمية عام ١٤١٠ للهجرة .

فالالتفات إلى كارثة دروس العلم بذهاب أهله أمر بالغ الضرورة وذلك بإنشاء مدارس خاصة بإعداد جيل من العلماء يكونون حصناً للأمة في أيامها القادمة .

رابعا: ربط الشرع بالعقل في أذهان الناس .

فإن مما يلحظه القارئ للتاريخ الاجتماعى والثقافي للمسلمين في القرن الماضى ، يلحظ أن من أسباب انهيارهم القِيَمِى السريع ، ظهور نُخَب علمية وأدبية رافضة لواقع التدين في الشعوب الإسلامية ، حيث كان التدين الخرافي هو المتحكم في غالب المجتمعات المسلمة ، وكان ذلك الواقع المزري يستظل

بصمت علماء الدين في أحوال قليلة أما في غالب الأحوال فكان يستظل بتأييدهم ودعمهم ، الأمر الذي حدا بالنخب العلمية والأدبية المتأثرة بحضارة المستعمر العقلانية إلى رفض هذا التدين ، وجاء الرفض على أشكال مختلفة ، فمنها محاولة ما عُرف بالإصلاح الدينى أو عصرنة الدين على يد بعض العلماء المتأثرين بالحضارة الأوربية من أمثال محمد عبده الذي تقدم الحديث عنه ، والشيخ محمد مصطفى المراغى المتوفى سنة ١٣٦٤ وعبد العزيز جاويش المتوفى سنة ١٣٤٧ وغلب على هذه المحاولات جعل العقل حكماً على الشريعة على اعتبار أن المشكلة إنما هى في غياب الفهم العقلاني للشريعة ، فابتُلِى هذا المنهج برد كثير من النصوص أو تأويلها تأويلاً غير مقر شرعا .

ومن أشكال الرفض الجنوح إلى العلمانية الجزئية كما فعل على عبد الرازق المتوفى سنة ١٣٨٦ . أو الجنوح للعلمانية الكلية كما فعل أحمد لطفى السيد المتوفى سنة ١٣٨٣ ، وطه حسين المتوفى سنة ١٣٩٣ للهجرة ، وقد كان لالتباس الخرافة بالدين أثرها في انحراف أمثال هؤلاء النخبة التى كانت بالغة التأثير في المجتمع مباشرة عن طريق حضورها الإعلامى والخطابى والثقافي والسياسى والاجتماعى ، أو عن طريق تأثيرها في نخب آخرين لهم ارتباط كبير بالمجتمع وتأثير عليه .

نعم هناك آخرون كان ارتباط التدين بالخرافة دافعاً لهم إلى التفكير والوصول إلى المنهج الحق كنعمان الألوسى توفي في ١٣١٧ ، ومحمد رشيد رضا توفي في ١٣٥٤ ، إلا أن أثر أولئك كان أكبر على المجتمع .

وكمرحلة أولى لربط الدين بالعقل يجب ربطه بالدليل الصحيح ، وأن يزرع في الناس حب الدليل والسؤال عنه في قضاياهم ، فالدليل هو أعظم ما تُنْفى به الخرافة عن الشريعة وأعظم رابط بين العقل والشرع ، لكن بيان هذا الارتباط بين الشرع والعقل عصمة لعقول العامة من مزالق النُخَب .

الخامس : إحياء شعيرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتواصى بالحق والصبر ، فهذه الشعيرة إن تم بعثها في المجتمع بشكل قوي حتى تصبح مسؤولية يشعر بها الناس تجاه بعضهم مع اختلاف درجاتهم العلمية والوظيفية والمادية فسوف تكون كفيلة بنفى أي تغير سلبى في المجتمع سواء أكان هذا التغير دينياً أو أخلاقيا أو ثقافياً ، أو اقتصادياً .

وهذا التواصى لابد له من إعادة دور مساجد الأحياء كوسيلة للترابط الاجتماعى وإقامة مؤسسات مجتمعية تعمق صلة الأفراد ببعضهم ، وهذه الصلة في ذاتها تُحَقِّقُ قسطاً من التواصى والرقابة الاجتماعية ، لكنها قد تكون مؤدية إلى التنافس في المُتْرِفَات إلى

أن يصل الأمر إلى مظاهر منحرفة كما هو حاصل الآن ، لذلك فإن جعل المسجد مركزاً للتواصل الاجتماعى المؤدي للرقابة المجتمعية سيحد من احتمالية التنافس في المترفات لارتباط المسجد في أفئدة الناس بالمعاني التى لا تسمح بجعل الدنيا محوراً للتفكير .

ومن المفيد أن تكون المرأة في هذا الارتباط المسجدي حاضرة بشكل قوي في نشاطات خاصة بها ، **فالنساء من أقوى عوامل الممانعة المجتمعية إذا فُعِّل دورهن بشكل يخدم التواصى بالحق والتواصي بالصبر .**

السادس : العناية بالفئات الغنية ، وذلك أنها بما آتاها الله سبحانه وتعالى من مال تُعَد مؤثرة في المجتمع بشكل كبير ، وهى أولى فئات المجتمع انسياقًا للفساد لامتلاكها لأدواته كما أن لديها القدرة الأسرع على الإصلاح حين تكون صالحة والأقدر أيضا على الإفساد في كل شيء .

والعجيب أن هذه الفئة مع غناها إلا أنها هى التى تمد الفقر غالبًا بعامل النمو لا سيما في الدول التى لا تعاني من حيث الإجمال شحًا في مواردها المالية، وأعنى به شراهة المجتمع فيما يسمى بالاستهلاك، وعند التأمل نجد أن الأليق تسميته بالإهلاك، حيث إن الأمر وصل إلى أن مقدرات الأرض أصبحت تُنفق إلى

غير بدل، وهذا هو الإهلاك، بعد أن كانت معظم مقدرات الأرض تخضع لعملية تدوير تجعلها غير منقطعة المنفعة على مر العصور.

علماء مقاصد الشريعة يُقسمون مطالب الإنسان في الأرض إلى ضروريات وهى ما يترتب على فقدها الهلاك وحاجيات وهى ما يترتب على فقدها شدة الضيق، وتحسينات وهى ما يترتب على فقدها فقدان التوسعة والتزين بأطايب الحياة، ويجعلون لكل مطلب من هذه المطالب متممات لتصبح أقسام ما يحتاجه الإنسان في حياته ستة، ثلاثة رئيسة وثلاثة تبع لها، والمجتمع يكون مثاليًا من الناحية الاقتصادية حين تكون مطالبه الحياتية وفق هذه القسمة، وأعنى بالمثالية قدرته على المقاومة الذاتية لكل مصاعب الحياة المالية، كما أنه حينذاك يكون قابلًا عند أي مشكلة اقتصادية طارئة للاستجابة لكل أنواع العلاج الدائم والمؤقت.

لكن الانفتاح المالى على المجتمعات حين لا يتزامن مع خطة للمحافظة على هذه الخارطة التى أوضحها علماء المقاصد، سوف ينتج عنه ورم خبيث يصعب استئصاله في كل مطلب من هذه المطالب.

فمع الانفتاح المالي تتسع دائرة الضروريات كثيرًا لتشمل ما

كان يُسمى بالأمس حاجيات وتصبح الحياة مستحيلة دون توفر الحاجيات التى كان فقدها بالأمس لا يؤدي إلا إلى شيء من الضيق.

ثم تصبح كماليات الأمس وتحسيناته حاجات يؤدي فقدها إلى الضيق والعسر، وبالتالى يبتكر المجتمع النهم أمورًا تحسينية لم تكن معروفة فيما مضى وربما لم تكن واردة في قاموس الأمة اللغوي.

ولا يتوقف هذا الأمر عند حد ، فورم الضروريات يظل في نمو حتى يصل إلى الكماليات التى تنضم سريعًا إلى دائرة ما يؤدي فقده إلى الهلكة والضياع، ويبتكر المجتمع حاجات جديدة وتحسينات غير متوقعة وهكذا إلى ما لا نهاية.

وضيق المساحة المخصصة للمقال تحول بينى وبين الاسترسال في ضرب الأمثلة لكن فطنة القارئ لن يبتعد عنها تصور مطالب المجتمع الحياتية هذه الأيام ومقارنتها بمطالبها قبل عشر سنوات ومقارنتها بما كان قبل عشر سنوات أخر، ليصل معى إلى حقيقة ملخصها أن التدفق المالى في مجتمعنا أدى إلى حركة استهلاكية جعلت من تحسينات الأمس ضروريات اليوم وهى حركة تقودها دائمًا الطبقات الثرية ساحبة وراءها كل مكونات المجتمع دون هوادة أو ترقب.

وهو سير لا يعبأ بمن لا يطيق، فالجميع عليه أن يستسلم لنمو ورم الضروريات وورم الحاجيات ويوقن أن مطالبه لن يكون لها نهاية.

في بيئة كهذه لا بد أن يوجد الفقر مهما عظم دخل الدولة ومهما عظم متوسط دخل الفرد في البلاد، فمن كان مرتبه الشهري عشرة آلاف ريال وهى تكفيه اليوم لن تكون كافية له غدًا، لأن هذه العشرة إنما تكفيه لأنه مستغن عن الكثير من متطلبات الرفاهية التى سوف يغطيها في الغد القريب ورم الحاجيات والضروريات لتصبح مما لا يمكن الاستغناء عنه وهذا ما سيجعل ذلك الرجل القانع بعشرة الآلاف فقيرًا أو على حافة الفقر.

وقد لمست ممن التقيت بهم من بعض كبار الأثرياء أنهم يشتكون هم أيضًا من قلة ذات اليد، وبعض الناس يكذبهم في شكواهم ويتندر بما يقولون لكننى أتفهم مشكلتهم بشكل جيد فإن ما هو من متممات التحسينات عندنا قد أصبح عندهم ضروريًا.

المشكلة الأكبر في نظري أن جميع ما أشاهده من محاولات لعلاج الفقر والعوز والحاجة في بلادنا تتم بعيدًا عن هذه النظرة، ولهذا لم تجد حتى الآن ولن تجدي بعد الآن أيضًا.

فزيادة المرتبات ورفع الضمان الاجتماعي وإعطاء الإعانات

وتسهيل القروض التنموية، كلها حلول تبدأ بالطبقة الوسطى والفقيرة في المجتمع، وهاتان الطبقتان لا تقودان قطار الاستهلاك ولا تؤثران فيه.

الحل يأتى ناجعًا ومفيدا وإن كان بطيئًا حين ينصب على الطبقات الثرية في المجتمع والتى تجلس وحدها في عربة قيادة قاطرة الاستهلاك ومن عندها يبدأ ورم الضرورات.

فإذا قلنا هذا في الجانب المالى فهذه الطبقة لها التأثير نفسه وبالطريقة نفسها في الجانب الأخلاقى ، ففسادها يفسد المجتمع بأسره.

لهذا لزم أن يوجه جانب أكبر من عمل المصلحين داخل المجتمعات إلى هذه الفئة .

والله عز وجل حين قال ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٦] ، فليس ذلك عقوبة للمجتمع بذنوب المترفين فحسب ، بل لأن المجتمع يتأثر بهؤلاء المترفين فيفسق كله لفسقهم ضرورة إذا نكص عن القيام بواجب الأمر والنهي فيهم .

تمت هذه الورقات والله الهادي إلى سواء السبيل

مركز الفكر المعاصر

الإصدار (٢٨)

الممانعة المجتمعية

تأصيل فكري للمفهوم والوسائل

إذا كانت أمم الأرض جميعاً معنية بالحفاظ على قِيَمِهَا من باب الحفاظ على هويتها المعبرة عن ذاتها وحرصاً على استقلالها ، فإن أمتنا الإسلامية يجب أن تكون أشد حرصا على التشبث بما لديها من قِيَم ؛كان عامل الدين أكثر العوامل ظهوراً في تكوينها. ولهذا أصبح ما تحمله من قِيَم جزءً لا يتجزأ من رسالتها للعالم ، وحين تفقد هذه الأمة قيمها فإنها لا تفقد حضارة أو تاريخا أو استقلالاً مجرداً؛ بل تفقد رسالة اختصها الله سبحانه وتعالى بها موجهةً للناس كافة .

المؤلف

الناشر

دار الوعي للنشر والتوزيع
DAR ALWAAI

المملكة العربية السعودية

هاتف 966114539883 فاكس 966114532157

ص.ب 242193 الرمز البريدي 11322

daralwae@gmail.com

تصميم الغلاف

وجوه
WOJOOOH

9 786039 046950